البيان والبديع

الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م
جميع حقوق الطبع محفوظة

الكويت - مدينة سعد العبدالله - مقابل الدائري السادس - ق ٣م٢٨
Website: www.adahriah.com
E-mail: adahriah@yahoo.com
(+965) 99627333 - (+965) 51155398 - (+966) 559221028

البيان والبديع

تأليف الأساتذة الأفاضل

إبراهيم مصطفى　　محمد عطية الإبراشي　　محمود السيد عبد اللطيف

عبد المجيد الشافعي　　محمد أحمد برانق

راجعه الأساتذة الأفاضل

الدكتور طه حسين بك　　محمد أحمد جاد المولى بك　　أحمد أمين بك

دار الظاهرية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحیم

التعبير عن المعنى الواحد بأساليب كثيرة

١ — قال الإمامُ علىُّ بنُ أبى طالب :

يَجِب على الوَالِى أَنْ يتَعَهَّد أُمورَه ، ويتفَقَّد أعوانه ، حتى لا يَخفى عليه إحسانُ مُحْسن ، ولا إساءة مُسىء ، ثم لا يَتْرُك وَاحداً منهما بغير جزاء ، فإنْ تَرَك ذلك تَهاوَنَ المُحسِن ، وَاجْتَرأَ المُسىء ، وفَسَد الامر ، وضَاعَ العَمَل .

وقال إبراهيم بنُ العبّاس فى هذا المعنى :

إذا كان للمُحسن من الثَّواب ما يُقْنِعُه ، وللمُسىء من العقاب ما يَقْمَعُه ، أزدادَ المُحسن فى الإحسان رَغبة ، وانْقادَ المسىء للحق رَهْبة . فلْيَكُن الرّاعِى على بَيِّنةٍ من أمر رَعِيَّته ، مجازِياً كلاّ على عمله ، ليصلح حالها ، ويستقيم أمرها .

ترى اتّفاق العبارتين فى المعنى وفى الغَرَض ، وتَسْتَطيع أن ترى فارقاً بين الأسلوبين .

(١) فالعِبارة الاولى أُرْسِلَتْ بغير سجْعٍ ولا تقابل ، ولا مجانسة بين الالْفاظ إلا فى النَّادر ، والأخرى روعى فيها هذا ، كما ترى

فى المحسِن والمسىء ، والثواب والعِقاب ، ورَغْبة ورَهْبة ، وكما ترى فى يُقْنِعُهُ ويَقْمَعه .

(ب) والأولى أوضح معنى ، وأبْسط تأليفاً ، كما ترى فى : تَهاوَنَ المُحسن ، واجْتراأ المُسىء — من العبارة الأولى ؛ وفى : ازْدادَ المُحسن فى الإحسان رَغبة ، وانْقادَ المُسىء للحَقّ رَهْبة — من العبارة الأخرى .

(حـ) والأولى بُدِئَت بما يَجب عمله ، ثم أتبع ذلك ببيان السَّبب ، وفى الأخرى عُكِسَ الأَمر تقريباً . فترى أن القائِلَيْن تناوَلا معنًى واحداً ، وسَلَك كلٌّ منهما طَريقَةً خاصَّةً فى التَّعْبير ، وتَسْتَطيع التَّفرِقَةَ بين الأُسلوبَيْن بالفَهْم وحُسن النَّظَر فى القول .

٢ — وقال عمر بن عتبة المعروفُ بالعتْبِى :

العَقْلُ عَقلان : عقلٌ تَفَرَّدَ الله بصُنْعِهِ وهو الأَصل ، وعقلٌ يَسْتَفيدُه المرء بأَدَبه وهو الفَرْع ؛ فإذا اجْتَمَعا قوَّى كلٌّ منهما صاحبه تَقوِيَةَ النار فى الظُّلمة للبصر .

وقال فى هذا المعنى أحد الشُّعراء :

رأَيتُ العَقْلَ عَقْلَيْن ... فمَطْبوعٌ ومصنُوعُ
ولا يَنْفع مصنوعٌ ... إذا لم يك مَطْبوعُ
كما لا تنفعُ الشَّمس ... وضوءُ العَيْن مَمْنوعُ

المعنى الكُلِّى واحد ، والسَّبيلُ إلى التَّعْبير عنه مُخْتَلِفٌ ؛ فالعِبارَةُ الأُولى منثورة ، والأخرى منظومة ، وهذا فرقٌ جَلِيٌّ لا يَحْتاجُ إلى إعمال فِكْر .

وإذَا تأمَّلْت وَجَدْت فَوارِق أُخرى : فى صَوْغِ العِبارة ، وتأْلِيفِها ، وفى اجْزاء المعنى .

(١) فالشاعر كرر كلمتَىْ « مصنوع » و «مطبوع» على غير دَاع ، وقد سَلِمَت الأُولى من هذا التّكرار .

(٢) وكلمة « مصنوع » فى الشعر ، تُقابِل كلمة « مُكْتَسب » فى النثر ، و « مُكْتَسَب » أَلْيَقُ بموضِعها ، وأَدقّ فى الدِّلالة على مايُراد منها . فالعتبي أَدَقُّ عبارة ، وأَحْكَمُ تأليفاً ، وأَسْلم من التّكرار .

(٣) قَسَّمَ كلٌّ منهما العقلَ قِسمين ، وفاضَلَ بينهما ، ولٰكِنَّهما اخْتَلَفا فى طريق المُفاضَلَة ؛ فالاوّل ذَكَر أَنّ القِسْمَين يَتعاوَنان إذا اجْتَمعا ، ومثَّل لهما بضَوْءِ النار يُقَوِّى البصر فى الظُّلمة . وذكر الآخر أنهما إذا افترقا لم يغن المُكْتسَبُ شيئاً ، ومثل بنور الشمس لمن لا يُبْصِر ؛ فقد اخْتَلَفا فى أَجزاء المعنى . والأوّل بيَّن حالة اجْتِماع العَقْلين ، والآخر بيَّن حالة افْتراقِهما . والحالة الّتى ذكرها العُتْبى أَقرب إلى الواقع ، وآلفُ عندالنّاس ؛ فإنهم يَبْتَغون دائِماً تَقوِيةَ العقل المَوْهوب بما يُكْتَسَبُ من تَجارِب ، ويُسْتفاد من عِلم . ولا يطمع أَحد أن يفيد غير العاقل بالتعليم شيئاً .

وهاك مثلاً ثالثاً :

(١) قال أَوسُ بنُ حَجَر :

الأَلمَعِيُّ الذى يظُنُّ بك الظَّـــنَّ كأَنْ قد رَأَى وقد سَمِعا

وقال أَبو تمّام :

ولَهُ إِذا قاسَ الأُمورَ بظَنِّهِ عِلْمٌ وفى بعض القُلوب عُيونُ

وقال المتنبّى :

ويَعرِفُ الأمرَ قبـــلَ مَوقِعِهِ فما له بعـــد فِعْله نَدَم

هؤلاء الشعراء الثلاثة تناوَلوا مَعنًى واحداً هو :

الوصفُ بصِحَّة الرأى ، وإصابةِ الظَّنِّ ، وحُسنِ التَّقْديرِ لما يستقبلُ من الأمور ، واتَّخَذَ كلٌّ فى الدِّلالةِ على ما أَرادَ سبيلاً خاصَّة .

وهذا مثلٌ آخر فى معنى إِظْهارِ العَيْن ما يُخْفيهِ الصَّدْرُ .

قال الشاعر :

تُكاشِرُنى كُرهاً كأَنك ناصِحٌ وعينُك تُبْدِى أَنَّ صَدْرَك لى دَوِى

وقال آخـــرُ :

تُخفِى العداوةَ وهى غيرُ خَفِيَّةٍ نَظرُ العَـدُوِّ بما أَسَرَّ يبوح

وقال غيره :

كلَّمَنِى لحظُك عن كلِّ ما أَضْمَرَه قلبك من غَـــدْر

وقال :

أما تقـــرأُ فى عَيْنـــىَّ عنوانَ الذى أُخفى

فالأوّلُ يقول : إنَّ العين تُبْدى . والثانى يَجْعَلها تَبُوح . والثالث يصوِّرها تتكلَّم . والرابع يُمَثِّلُها صحيفةً كُتِب عليها عنوان ما فى القلب .

فهذه أَساليبُ مختلفة فى الدِّلالة على المعنى الواحد ، وكلُّ أُسلوب منها قد توَافَر فيه الوضوح ، مع تفاوُتها فى الحُسن والتَّأثير ، وطريقة العَرْض للمَعْنى ، وقُوَّة تَقْريرها له فى نفس السَّامع .

وطول مُمارَستِك لِجيِّد الكلام ، وتفهُّمك معانيه ، وقياسِك القول إلى ما يُماثِله ، يفيدك الذَّوقَ النَّاقد الذى تُميِّزُ به أَنْواع الكلام ، وتُعْطِى كلَّ قولٍ حقَّه ، وتَضَعه عند قَدْره ، ويُعينُك على هذا ما تَعرِفُ من علم المعانى ، وما سَترى من قواعد عِلْم البَيان .

وقد تَرى المعنى الواحد يُعَبَّرُ عنهُ بطُرقٍ مختلفةٍ ، ثم تَرى كلَّ عبارة فى ميزان الأُخرى قُوَّةَ بلاغةٍ وحُسنَ بيان ، وَإِنَّما كان الكلامُ موجزاً مرَّة ؛ لانه قد أُريد الإيجازُ ، واقْتَضاه المقام ، وكان مُطْنباً مرة اخرى ؛ لان المقام اقْتَضَى التفْصيل وَسَعَة القول .

وليس اخْتِلاف العِبارتين على المعنى الواحد بموجبٍ حتماً أَنْ تكون إحْدى العِبارتين أَعلى من الأُخرى ، وأَقْوَى بَياناً ؛ بل قد تَعْلو إحداهُما الأُخرى ، وقد تَسْتَوى مَنْزِلتُهما فى البلاغة ، وترى فى القرآن الكريم قصصاً مكررة فى المنزلة الأُولى من البلاغة وحُسْن البيان ، وهذا مَثَلٌ منها .

قال تعالى فى سُورة الأَعْراف :

« فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِين . قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُون . قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِين . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيم . وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِين . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِين . قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِين . قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ . وَأَوْحَيْنَا إِلى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِي تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون . فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِين . وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِين . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِين . رَبِّ مُوسَى وَهرُون . قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُون . لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ . قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ . وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا . رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِين . »

وقال تعالى فى سُورة الشُّعَرَاء :

« فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِين . قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُون . قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِين . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيم . فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ . وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ . لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِين . فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِين . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِين . قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُون . فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُون . فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُون . فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِين . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِين . رَبِّ مُوسَى وَهَارُون . قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُون . لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِين . قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُون إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِين . »

تمرينات

١

فيما يَأْتى معانٍ تَناوَلَ التَّعبيرَ عن كلٍّ مِنْها أَدِيبان أَوْ أَكْثر ؛ بيِّن ما تَرَى من الفوارِق بين كلِّ عِبارة وما يُماثِلها ، وفَضِّل ما تختاره ، واذْكُرْ سببَ اخْتِيارِك :

(ا) قال عبدُ الله بنُ الزُّبير لما قُتِلَ مُصْعَبٌ أَخوه :

إِنَّما التَّجَلُّدُ والسلوة لِحُزماء الرِّجال ، وإِنَّ الهَلَعَ والجَزَعَ لِرَبَّاتِ الحِجَال .

وقد أَدَّى ذلك المعْنى أَبو تمَّام بقَوله :

خُلِقْنا رجالاً للتَّجَلُّدِ والاسى وتلك الغَوَانى للبُكا والمَآتِم

(ب) نَصَح أَديبٌ ابْنَه بقوله :

لا تَلْتَمِس الزِّيادَة مِن ذِى عُرْفٍ قبل أَنْ تَقوم بشُكْرِ ما أُوتِيتَهُ منه .

وقال فى ذلك المعْنى أحمدُ بنُ صُبَيْح :

فى شكر ما تَقَدَّم من إِحْسان الأَمير ، شاغِلٌ عن اسْتِبْطاء ما تَأَخر منه .

وقال سَعيدُ بنُ حُميد :

لَستُ مُسْتَقِلا لِشُكر ما مَضَى من بلائِك ، فأَسْتبطئُ دَرْكَ ما أؤمل من مزيدك .

وألَمَّ به أبو نُواس فى قوله :

لا تُسْدِيَنَّ إلىَّ عارِفَةً حتّى أقوم بشُكْر ما سَلَفا

(ج) قال بعضُ الشُّعراء :

ولا خيْرَ فى حُسْنِ الجُسوم وتُبْلِها إذا لم تَزِن حُسنَ الجُسوم عُقولُ

وعبَّر عن ذلك المعنى العَبَّاس بنُ مِرْداسٍ فى صورة أُخرى بقوله :

فما عِظَمُ الرِّجال لهم بفَخْر ولكنْ فَخْرُهم كَرَمٌ وخِيرُ

وأدَّاه المُتنبِّى فى صورةٍ ثالثةٍ فقال :

وما الحُسْنُ فى وَجْه الفَتَى شَرَفٌ له إذَا لم يكنْ فى فِعْله والخَلائِق

(د) قال أحدُ الشعراء :

يَوَدُّ بأن يُمْسى سَقيما لعلّها إذا سَمِعَتْ منه بِشَكْوى تُراسِلُه
ويَهْتَزُّ للمعروف فى طلب العُلا لتُحْمَدَ يوماً عند سَلْمَى شمائِلُه

وقد أدَّى ذلك المعنى شاعرٌ آخر فى صورةٍ أُخرى بقوله :

وقلتُ عَساها إنْ مَرِضْتُ تعودُنى فأَحْبَبْتُ لَوْ أنِّى غَدَوْتُ مريضا
وزِدْت اتِّساعًا فى المكارِمِ والعُلا ليُصْبِح جاهى عندهُنَّ عريضا

(٢)

قال بعض الشعراء :

أمِن خَوْف فقرٍ تعجِّلته تُؤَخِّر إنفاق ما تَجْمع ؟
فَصِرتَ الفقيرَ وأنتَ الغَنِىُّ وما كنتَ تَعْدُو الذى تَصْنَع

وقال أبو الطَّيِّب :

ومن يُنْفِق السَّاعات فى جَمع ماله ... مَخَافَةَ فقرٍ فالذى فَعَلَ الفَقْرُ

وَازِن بين قولَى الشَّاعرين فى كيفيَّة الأَداء وتقريب المَعْنى .

(٣)

قال أَبو تمَّام يَرْثِى طِفلَيْنِ ماتا صَغِيرَين :

نَجْمان شاء اللهُ أَلَّا يَطْلُعا ... إلا ارْتِدَادَ الطَّرْفِ حتى يَأْفِلا

إِنَّ الفَجِيعَةَ بالرِّياض نَوَاضِراً ... لأَجَلّ منها بالرِّياضِ ذَوابِلا

لَهْفِى على تِلك الشَّواهِد فيهما ... لَوْ أُخِّرَتْ حتى تكونَ شمائِلا

إِنَّ الهِلالَ إذا رَأَيْتَ نُمُوَّه ... أَيْقَنْتَ انْ سَيكونُ بَدْرًا كامِلا

إِن تُرْزَ فى طَرَفَىْ نهارٍ واحدٍ ... رُزْأَيْنِ هاجَا لوعةً وبَلابِلا

فالثُّقْلُ ليس مُضاعَفاً لمَطِيَّة ... إلا إذا ما كان فَحْلاً بازِلا

وقال أَبُو الطَّيِّب يَرْثِى طِفْلاً :

فَإِنْ تَكُ فى قَبْرٍ فإِنَّكَ فى الحَشَا ... وإِنْ تكُ طِفلاً فالأَسَى ليس بالطِّفْل

ومِثْلُكَ لا يُبْكَى على قَدْرِ سِنِّه ... ولكن على قَدْرِ المَخيلة والأَصْل

أَلستَ من القَوْمِ الذى من رماحِهم ... نداهم ومن قتلاهم مُهْجَة البخل

بمولودهم صَمْتُ اللِّسَان كَغَيْره ... ولكنَّ فى أَعْطافه مَنطِقَ الفَصْل

بدا وله وَعْدُ السَّحابة بالروى ... وصدَّ وفينا غُلَّةُ البلد المَحْل

ورِيعَ له جَيشُ العَدُوّ وما مَشى ... وجاشَت له الحَرْب الضَّروس وما تغلى

انْثر أَبْيات كُلٍّ منهما ، وبين ما اتَّفقا فيه من المعانى ، وما اخْتلَفا فيه ، ثم تَخَيَّر من كلِّ قِطعةٍ أَفْضل معنًى يُعْجِبك .

التشبيـــه

من أساليب البيان أنك إذا أردت إثبات صفةٍ لموصوف مع التوضيح أو وجهٍ من المبالغة — عَمَدْتَ إلى شيء آخر تكون هـذه الصفة واضحة فيه ، وعقدت بين الاثنين مماثلة تجعلها وسيلة لتوضيح الصفة أو المبالغة فى إثباتها .

يقال فى الوصف بالرفعة : هو كالبدر رِفْعَـةً .

وفى الوصف بالجرأة والإقدام : كأنه الأسدُ جُرأةً وإقداماً .

وفى الوصف بالغرور والخديعةِ : إنَّهُ مِثْلُ السَّرَابِ يَغُرُّ من رآه ويُخْلِف من رجاه .

ويسمى البيانيون هـــذا الأسلوب تشبيهاً ، ويفصلون درسه على الوجهِ الآتى :

(١) مَا أُرِيدُ إثباتُ الصفةِ له يُسمَّى مُشَبَّهاً .

(٢) ما وَضَحت فيه الصِّفة يُسمَّى مشبهاً به .

(٣) الـكلمة التى أفادت المماثلة تُسمى أداة تشبيه .

(٤) الصفة التى قُصِد إثباتها للمشبه تسمى وجه شبهٍ .

ويُسَمُّون الجميعَ أركانَ التشبيه .

فالمثال الأول — « هو كالبدر رفعة » — فيـه « هو » مشبَّه ، و « البدر » مشبَّه به ، و « الـكاف » أداة تشبيهٍ ، و « الرفعة » وجه شبه.

المثال الثانى : فيه الضمير من « كأنه » مشبه ، و « الأسد » مشبه به . و « كأن » أداة تشبيه ، و « الجرأة والإقدام » وجه سبه .

والمثال الثالث فيه الهاء من « إنَّه » مشبه ، و « السراب » مشبه به ، و « مثل » أداة تشبيه ، و « الغرور والإخلاف » وجه شبه .

والمشبَّه والمشبَّه به يُسمَّيان طَرَفَي التشبيه .

ومن هذا يَتَّضح ما يأتى :

(١) التشبيه عَقْدُ مماثلةٍ بين أمرينِ ، قُصِدَ إشراكُهُما فى صفة أو أكْثَرَ بأداةٍ لغرضٍ يقْصِده المتكلِّمُ .

(٢) أركان التشبيه أربعة :

المشبه ، والمشبه به ، وأدَاةُ التَّشبيهِ ، وَوَجْهُ الشَّبهِ .

(٣) طَرَفا التشبيهِ : المشَبَّهُ ، والمُشَبَّهُ بِهِ .

(٤) وجهُ الشبهِ : الصِّفةُ أو الصِّفات التى قصِد إشْراكُ الطَّرفين فيها .

(٥) أداة التشبيهِ : كلُّ لفظٍ يَدُلُّ على المماثلة كالكاف ، وكأن ، ومثل ، وشِبْه ، وحَاكَى ، وشَابَه ، ويُضَارع ، ويُماثل .

ويجوز فى التشبيهِ حذف الأداة ، أو وجهِ الشبهِ ، أو حَذْفُهما معاً .

و « الكافُ » و « كأنَّ » أكثر هذه الأدوات استعمالاً فى التشبيهِ .

الفرق بين الكاف وكأن

الكاف ، وكأن ، كِلاهما للتشبيهِ ، إلاَّ أنَّ الأصلَ فى الكافِ أن يَليَها المشبهُ بهِ ؛ نحو :

حُكْمهُ كالسيف مَضَاءً ، وقلبهُ كالحجر قَسْوة .

أما كأن فيليها المشبه ؛ نحو :

كأنَّ الطائرَةَ نَسْرٌ عَظِيمٌ ، كأنَّ البحرَ مرآةٌ صافيةٌ ، كأن كلامَهُ الشَّهدُ حلاوةً ، كأنَّ الجوَّ نار مُوقَدَةٌ .

تمرينـــات

(١)

بين كل تشبيه فى الأبياتِ الآتيةِ ، ووضح أركانَهُ :

(١) قال رشيد الدين الوَطْواط :

فَوَجْهُك كالنـــارِ فى ضوْئِها وقلبيَ كالنـــار فى حَـــرِّها

(٢) وقال أيضاً :

كأن الثريَّا هَوْدَجٌ فوق ناقَةٍ يَجُثُّ بها حادٍ إلى الغربِ مُزْعِجُ

وقد لَمَعَتْ حتى كأنَّ بَرِيقَها قَواريرُ فيها زِئْبَقٌ يَتَرَجْرَجُ

(٣) وقال آخرُ يصِف جيشاً :

وجيش كمثلِ الليلِ هَوْلا وهَيْبَةً وإن زانَه ما فيه من أنْجُمٍ زُهْرِ

(٢)

انثر الأبيات الآتية مستعملاً أداة تشبيه غير التى استعملها الشاعرُ :

(١) قال صَفِيُّ الدين الحِلِّيُّ :

والوردُ فى أعلى الغُصونِ كأنَّه ... مَلِكٌ تَحُفُّ بِهِ سَراةُ جنودِهِ

وانظر لِنَرْجسِهِ الشَّهِيِّ كأنَّه ... طَرْفٌ تَنَبَّهَ بعد طولِ هجودِهِ

(٢) وقال آخر :

كأن الأُقحوانَ[1] وقد تَبَدَّتْ ... محاسِنُه فراقَتْ كلَّ عَيْنِ

عِمَادُ زَبَرْجَدٍ وقِبابُ تِبْر ... تَحُفُّ بها شُرافات اللُّجَيْنِ

(٣) وقال ابن حَمْدِيس فى وصف شَيْبٍ خُضِبَ بالسواد ، ثم نبت أصل الشعر أبيض ، وأطرافه لم تَزَلْ مُسْوَدَّةً بالخِضاب :

وكأن الخِضابَ دُهْمَةُ لَيْلٍ ... تحته للمشيب غُرَّةُ صُبْحِ

(٤) وقال آخر :

فجَرى النهر وهو يُشْبِهُ سيفا ... فى رِياضٍ كأنها أجْفانُ

(٥) وقال غيره :

والشمس من مشرِقها قد بدَت ... مُشرِقة ليس لها حاجِبُ

كأنها بَوْتَقَةٌ أُحْمِيَتْ ... يجول فيها ذهبٌ ذائبُ

---

(١) الأقحوان : نبات كثير فى الحدائق المصرية ، ويسميه عمال البساتين « حوان » ويمكن أن تجده بسهولة ، وهو نبات قصير أخضر الساق ، وزهرته مدَوَّرة ، وسطها أحمر مصفر محاط بأوراق بيضاء صغيرة جدًّا .

(٦) وقال آخر :

وكأن أجرام النجوم لوامعا دُرَرٌ نُثِرْنَ على بساط أزرقِ

(٣)

عيِّن كلَّ تشبيه فى الأبياتِ الآتيةِ ، وبيِّن وَجْهَ الشَّبَهِ ، ثم انثُرْ لأبياتَ مُستعملاً أداة تشبيهٍ غيرَ التى استعملها الشاعر :

(١) قال عبدُ اللهِ بْنُ المُعْتَزّ :

أُنظر إلى حُسْنِ هِلالٍ بدا يَهْتِكُ من أنواره الحِنْدِسا
كَمِنْجَلٍ قد صِيغَ من فِضَّة يَحصُد مِن زهرِ الدُّجى نَرْجِسا

(٢) وقال :

والنَّجْمُ فى الليلِ البَهِيمِ[1] تَخَالُه عَيْناً تُخَالِس غَفْلَةَ الرُّقَبَاء
والصبح من تحتِ الظلامِ كأنه شيبٌ بَدَا فى لِمَّةٍ[2] سَوداء

(٤)

اجعل كلَّ كلمةٍ من الكلمات الآتيةِ مشبهاً فى تشبيه تأتى به ؛ وبين وجه الشبهِ فى كل منها :

الشيب . اللحظ . العين . القلب . الأسِنَّة

---

(١) البهيم : الأسود (٢) اللمة : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن .

(٥)

اجعل كلَّ كلمةٍ من الكلماتِ الآتيـة مُشبَّهاً به ، وبين الأداةَ والوجه فى كل تشبيه :

بدر . برق . سماء . لهيب . دنانير . لآلئ

(٦)

اجعل كلَّ صفة من الصفاتِ الآتيةِ وَجْه شَبهٍ فى تشبيهٍ تُكَوِّنه ، وبين طَرَفَىْ كلِّ تشبيهٍ وأداتَه :

سرعة . حُلُوكة . صَفاء . قَسْوة . هِداية . بُطْء

(٧)

اجعل كُلَّ كلمتين متناسبتين طرفى تشبيهٍ تُكَوِّنُه مع تنويع الأداة ، وَبيِّن وجه الشبهِ فى كل تشبيهٍ :

النَّهر . نسر . مرآة . لآلىء . النجوم . الطيارة

(٨)

صف فى عبارةٍ موجزةٍ جَمْعاً شديد الجلبـةِ على خطيبٍ يعظ ولا يسمعه أحد ، مستعملاً فى عبارتِك ما تستطيع من التشبيه .

أغراض التشبيه

يستعمل التشبيه لأغراض منها :

(١) بيانُ حالِ المشبه ؛ حينما يكون غير معروف الصفة التى يراد إثباتها له ؛ نحو : شجر النّارنج كشجر البرتقالِ ، وبيض الثعبان كبيض العصفور ؛ تقول ذلك لمن يعرف حال المشبه به ، ولا يعرف حال المشبه فى كليهما .

(٢) بيانُ مِقْدارِ حال المشبه ؛ حينما تُعرف الصفة التى يراد إثباتها له معرفة إجمالية ، والتشبيه يُبَيِّنُ مِقدارَها ؛ نحو : هذه فاكهة حُلْوةٌ كالسكر .

ونحـــو :

كم نعمةٍ مَرَّت بنا وكأنها فرسٌ يُهَرْوِل أو نسيمٌ سارى

(٣) تقرير حالِ المشبهِ فى ذهن السامع . ويَكثُر فى تشبيه الأمورِ المَعْنَوِيَّةِ بأُخرى تدرك بالحِسِّ ؛ نحو : التعلُّمُ فى الصغرِ كالنقش فى الحجرِ .

ونحو قوله تعالى :

« مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم ؛ أَعْمَالُهُم كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ » .

ونحو قول الشاعر :

إن القلوبَ إذا تنافر وُدُّها مِثْلُ الزجاجةِ كَسْرُها لا يُشْعَبُ

(٤) تَزْيينُ المشبه ؛ كقول الشاعر فى وصف أسودَ :

وزاد بك الحسنُ البديعُ نضارةً كأنك فى وجهِ المَلاحةِ خَال

(٥) تَقْبيحُ المشبه ؛ نحو : صوته كالرعد .

قالَ ابنُ رَشيقٍ فى العمدة : « والتَّشْبيهُ الحَسَنُ : هو الَّذى يُخْرِجُ الأَغْمَضَ إلى الأَوْضَح فَيُفيد بياناً . والتَّشْبيه القَبيحُ : ما كان على خِلاف ذلك . »

وشرح هذا أنَّ ما تَقَعُ عليه الحاسَّة أَوْضَحُ فى الجُمْلَة مما لا تَقَعُ عليه الحاسَّة ، والمُشاهَدَ أَوْضَحُ من الغائِب ، وما يُدْرِكُهُ الإنسانُ من نَفْسه أَوْضَحُ مما يَعْرِفُه من غيره ، وما قَد أُلِفَ أَوْضَحُ مما لم يُؤْلَف ؛ ولذلك عابوا قولَ الشّاعر :

وله غُـــرَّةٌ كَلَوْن وصال فَوْقَها طُرَّةٌ كلون صُدود

وقولَ أَبى مِحْجَنٍ فى وَصْف قَيْنَة :

تَرَفَّعُ الصَّوْت أحياناً وتَخْفِضُه كما يَطِنُّ ذبابُ الرَّوضة الغَرد

فأَيَّة قَيْنَةٍ تُحِبُّ أَنْ تُشَبه بالذباب . »

بلاغَةُ التَّشْبيه

يَقْصِدُ المُتكلم إلَى التَّشبيهِ لغَرَض من الأغْراض التى بيَّنَّاها من قبل ، وكلَّما كانَ التَّشبيهُ مُحقِّقاً للغَرَض الذى اجْتُلِبَ من أَجْله ، كان أَبْلَغ وأَعلى ؛ فقد يُراد بالتَّشبيهِ توضيحُ المعنى الخَفِيِّ ، وتقريب البعيد ، فبلاغَتُه إذاً أن يُحَقِّق ما أُريد من هذا التَّوضيح والتَّقريب ؛ مثل قوله تعالى : « والَّذِينَ كَفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً . »

فَصُوِّرَتْ أَعْمالُ الكافِرِينَ خادِعَة تَتَعَلَّق الآمالُ بثَمَراتِها ، ثم لا تُعْقِبُ إلا خَيْبَةً وندَماً ، وأُخْرِجَ ما لا يُحَسُّ فى صُورة ما يُحَسّ ، وأُبْرز فى تمثيل دقيق واضح .

وكذلك قوله تعالى :

« مَثَلُ الَّذِينَ كَفروا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فى يومٍ عاصِف . »

وَقَدْ يكون الغَرَضُ تَأْييد المعنى وتَقْوِيَتُهُ ، فَتَجىء بالتَّشبيهِ كأَنَّهُ حُجَّةٌ تُؤَيِّدُ بها قَولَكَ وتُقَرِّرُه ، وتُقْنِع السّامع بهِ ؛ كقول الشاعر :

لا تُنْكِروا عَطَلَ الكَرِيمِ من الغِنَى فالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمكانِ العَالى

فقد ادّعى أنَّه كَرِيمٌ ، وأنه لِذٰلِك فَقير ، وَرأَى النَّاسَ يُنكِرون أن يكون الكَرِيمُ مُعْدما ، عاطِلًا من حِلْية المَال ، فقال : إنَّ ذلك أَمْرٌ

طَبيعىٌّ مُقَرَّرٌ فى نِظام الحَياةِ وَقوانِينِها ؛ فالمكانُ العَالِى لا يَبْقَى به السّيل .

وكذلك قولُ الشاعر :

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسانَ حَسُود

لَولا اشْتِعالُ النَّار فيما جَاوَرَتْ ما كانَ يُعْرَفُ طيب عَرْفِ العُود

قرَّر أن الحَسَدَ سببٌ فى ظُهورِ النِّعْمَةِ وشُهْرَتِها ، وكان فى هذا الادِّعاء غَرابةٌ ، وبُعْدٌ عن المألوف ، فمثل الحَسَد بالنَّار تَمَسُّ العود الطيِّبَ فَتُذِيع رِيحَه ، وَتنْشُر بين الناس عَرْفَه .

فأنْت ترى بَلاغَة هذا التَّشْبيه وقُوَّتَه فى أَنَّهُ أَتى عَقِب الكلام ، كالحُجَّةِ الَّتى تُثْبِتُ الرأى وتُقْنِع السامع به .

(٣) وقد يكون الغَرَضُ تَزْيينَ المُشَبَّه وتَجْمِيلَه ، وإبْرازَه فى أَحْسنِ صُورَةٍ تليق به ، فبلاغَةُ التَّشبيه إذاً تكون بتَحْقيق هذا الغَرض .

قال كُثيِّر :

ألا إنَّما هِنْد عَصاً خَيْزُرَانَةٌ إذَا غَمَزُوها بالأَكُفِّ تَلِينُ

فَلمَّا سمِعَ هذا التَّشبيه بشَّارُ بن بُرْدٍ الشاعر ، عابَه وقال : قاتَلَ اللهُ أبا صَخْر ، يَزْعُم أنها عَصًا وَيَعْتَذِرُ بأَنها خَيْزُرَانَة ؟ هلَّا قال كما قلت :

إذا قَامتْ لِمشْيَتِها تَثَنَّتْ كأَنَّ عِظامَها من خَيْزُرانِ

فترى بلاغَةَ التَّشْبيه الثَّانى ، وأنها أتت من حُسْن تَحقِيق الغَرَض وهو التَّحْسين والتَّجميل ، وَإبراز مَن أحَبَّ فى أحْسن صورة تَليق بها .

(٤) وقد يجيءُ جمال التَّشْبيه من طَرَافَتِه، ورَسْمِه صورةً بديعَة مُعْجبَةً؛ كما ترى فى قول بشّار:

كَأَنَّ مُثارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤوسِنَا وأسْيافَنَا ليلٌ تَهاوَى كَواكِبُه

فقد مَثَّل الغُبار فى الحَرْب لَيلاً مُظْلِماً لكَثْرة ما ثَار منه فوق رُءوسِهم، وجَعلَ الأسْياف وهى تَتَضارَبُ مُسْرِعَةً، وتَبْرُق لامِعةً — كواكب هذا اللَّيل تَتَساقَط مُتتابِعَة. فهى صورةٌ طَريفة جَميلَةٌ تروق السَّامع وتدُلُّ عَلَى مَهارة الشاعر.

وقال العَتَّابِيُّ فى هذا المعْنى:

عَقَدَتْ سَنَابِكُها من فوق أرْؤُسِهم لَيلًا كَواكِبُه البِيضُ المَبَاتِير

فقارب بشّاراً فى المعنى، ولكنك تَسْتطيع أن تَجِد فرق ما بينهما، وترى فَضْل بشّار؛ إذْ جعل الكواكب تَهْوِى وتتساقط. فمثل لك هذه الصورة الطَّريفة الغريبة وَبيَّنَ حركاتِ السُّيوف، وشِدَّة المعْرَكَة، وقوة النِّضَال فيها. وجاءت صورة العَتَّابى ساكِنة جامدة: ليلٌ من غُبار، فيه كواكب من السُّيوف.

وكذلك ترى طَرَافَةَ التَّشبيه فى الأَبيات الآتية مثيرَةً لِإعْجابِك به، وبعمل الشاعر فيه، شاهدةً ببلاغته:

ولا زَوَرْدِيَّة تَزْهو بزُرْقَتِها بَيْنَ الرِّياضِ عَلَى حُمْرِ اليَواقِيتِ

كأَنَّها فوق هاماتٍ ضَعُفْنَ بها أوائِلُ النَّار فى أطْرافِ كِبريت

هذه الطَّرافة فى التَّشْبيه تُعْجِبك وتَرُوقُك ، وتَشْهَد بتَصَرُّف الشَّاعر وقُوة خَياله ، وتَأْخُذ بحظٍّ من البَلاغة . ولكن أقْوى أنواع التَّشبيه وأفْضَلَ بلاغاتِهِ يجىء من ناحِيَة تَحْقيقِ الأَغراض الأولى السَّابقة : من تَوْضِيح المُشَبَّه ، أو تقْرِيره ، أو تَحْسِينه ، أو تقْبِيحه ، كلٌّ فى مَوْضِعه .

تمرينـــات

(١)

بيِّن التشبيه ، وطرفيه ، والغرض منه ، فى كل بيتٍ من البيتين الآتيين :

(١) معشرٌ أصبحوا حصونَ المعالِى ودُروعَ الأَحسابِ والاعراضِ

(٢) كأن مِشْيَتَهَا من بيتِ جارتها مرُّ السحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

(٢)

بين نوع كل تشبيه فيما يأتى ، والغرض منه ، ووضح طرفيه ، ووجه الشبه فيه :

(١) الرجلُ ذو المروءة يُكْرَمُ عَلَى غير مال ، كالأسدِ يهاب وإن كان رَابِضا .

(٢) صحبة الأشرار تورثُ الشرَّ ، كالريح إذا مَرَّتْ على المنتنِ حملت نَتْنا .

(٣) « وَيَطُوفُ عَلَيْهِم وِلْدانٌ مُخَلَّدونَ ؛ إذا رَأَيْتَهُم حَسِبْتَهُم لُؤْلُؤًا مَنْثوراً . »

(٤) كان أبو بكر كالغيث ، أينما وقع نفع .

(٥) أصحابى كالنجوم ، بأيِّهِمُ اقْتَدَيتُم اهْتَدَيْتُم .

(٦) قال صَفِىُّ الدينِ الحِلِّىُّ :

لِىَ جارٌ كأنه اليومُ فى الشَّكْـــل وأمَّا فى عُجْبه فغراب
هو كالمـــاء إن أردتَ له قبـــضاً وإن رمت مَوْرداً فَسَرَابُ

(٧) وقال المتنبى فى وصف أسدٍ :

ما قُوبِلَتْ عيناه إلا ظُنَّتَا تحت الدُّجَى[1] نارَ الفَرِيق[2] حُولَا[3]

(٨) وقال فى المدح :

أرى كلَّ ذِى جودٍ إليك مَصيرُه كأنك بحرٌ والملوك جَداولُ

(٩) وقال عبد الله بن المُعْتَزِّ :

وهُمُ فَراش السوءِ يوم مُلِمَّةٍ يَتَهافَتُونَ تَعاشِياً وخَبالا
وهُمُ غَرابيلُ الحديثِ ، إذا وَعَوْا سِرًّا تَقَطَّرَ مِنْهُمُ أو سالا

(١٠) وقال آخر :

العُمْرُ مِثْلُ الضيفِ أو كالطَّيْفِ ليس له إقامَه

(١١) وقال غيره :

وقد أُلاقى بَأْسَ[4] العُداةِ على طِرْفٍ[5] بِقُضْبٍ[6] كالنار تتَّقِد
أو عاسِلٍ[7] كالشجاعِ[8] هاجَ لِىَ النفْـــسَ ودِرعٍ كأنها الزَّبد

---

(١) الدُّجى : جمع دجية وهى الظلمة (٢) الفريق : الجماعة
(٣) حولا : أى مقيمين (٤) البأس : الشجاعة
(٥) الطرف : الفرس الكريم (٦) القضب : السيوف
(٧) العاسل : الرمح (٨) الشجاع : الحية .

(١٢) وقال :

لعمرك إننى وأبا علىٍّ كنبتِ الأرضِ تُصْلِحه السماء

(١٣) وقال امرؤ القيسِ :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدبِرٍ معا كَجُلْمودِ صخرٍ حَطَّه السَّيْلُ من عَلِ

(١٤) وقال المعرِّى :

تحَطَّمُنا الأيامُ حتى كأننا زجاجٌ ولكن لا يُعاد له سَبْكُ

(٣)

كوِّن التشبيهاتِ الآتية :

(ا) تشبيهاً الغرض منه تحسين المشبَّه .

(ب) تشبيهاً الغرض منه تقرير حال المشبَّه .

(ج) تشبيهاً الغرض منه تقبيح المشبَّه .

(د) تشبيهاً الغرض منه بيان مقدار حال المشبَّه .

(٤)

فى الأبياتِ الآتيةِ تشبيهات ، وضحها ، وبيِّن الأداة والوجه فى كل تشبيهٍ ، والغرض منه :

قال عبد الله بن المعتز :

كم قَدْ قطعتُ إليكَ من دَيْمُومةٍ[1] نُطَفُ المياهِ بها سوادُ الناظِرِ

فى ليلة فيها السماء مُرِزَّةٌ[2] سوداءُ مُظلِمةٌ كقلبِ الكافِرِ

---

(١) الديمومة : الفلاة الواسعة (٢) مرزة : مرعدة

والبرقُ يخطَف من خِلالِ سحابها خَطْفَ الفؤادِ لموعدٍ من زائر
والغيثُ مُنْهَلٌ[1] يسح كأنه دمع المُودِّع إثْرَ إلفٍ سائرِ

التشبيه باعتبار الأداة

(١) الأكثر فى التشبيه أن تُذْكَر أداته كما مر بك ، وكما فى قوله تعالى :

« وحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ . »

وقوله : « وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ . »

وقوله : « كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ . »

ونحو قول الشاعر :

والوجه مثل الصبحِ مُبْيَضٌّ والفَرْعُ مثل الليل مُسْوَدُّ
ضِدَّانِ لما استجمعا حَسُنا والضِّد يُظْهِر حُسْنَهُ الضِّدُّ

(٢) وقد تحذف الأداة ، نحو :

وجهه فِى الإشراقِ ضوءُ النهار ، وأخلاقه فى الرِّقة النسيم .

ونحو قول الشاعر :

أنت نجمٌ فى رِفعةٍ وَضياء تَجْتَليك العيونُ شرقاً وَغرباً

---

(١) منهل : منسكب

التشبيه باعتبار الوجه

(١) يذْكَر وجهُ الشبه فى التشبيه ؛ نحو :

محمد كالْبَحْرِ عَطَاءً ، وكأن طباعهُ الماءُ صفاءً .

ونحو قول الشاعر :

وَأَدْهَمَ كالغرابِ سوادَ لونٍ يطير مع الرياحِ ولا جَناحُ

(٢) وقد لا يكون وجه الشبهِ مذكوراً ؛ نحو :

عَزْمةُ خالدٍ كالسيفِ .

ونحو قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » .

ونحو قول الشاعر :

والوردُ فى شط الخليج كأنه رَمَدٌ أَلَمَّ بِمُقْلةٍ زرقاء

التشبيه البليغ

إذا حذف من التشبيه وجه الشبه مع الأداةِ سمى تشبيهاً بليغاً ؛

نحو قول الشاعر :

عَزَمَاتُهُمْ قُضُبٌ ، وَفَيْضُ أَكُفِّهم سُحُبٌ ، وَبِيضُ وجوهِهِم أقمارُ

ومن التشبيه البليغ ما أضيف فيه المشبه به إلى المشبه ؛ نحو :

أَسْتَرْشِدُ بِسِراجِ رأيك — لَبِس فلان رداء العافية — ونحو :

ثوب الرياء يشِفُّ عما تَحْتَهُ فإذا اكتسيتَ به فإنك عارِى

ومن أنواع التشبيهِ البليغ أن يكون المشبه به مصدراً مبيناً للنوع ؛ نحو : أَقْدَمَ الجُنْدِىُّ إقدامَ الأَسدِ — وفاضَ الأميرُ فيض البحرِ — وراغَ المدِينُ رَوَغانَ الثعلبِ .

تمرينـــات

(١)

بيِّن التشبيه ونوعه من حيث الأداة والوجه فيما يأتى :

(١) قال القاضى الفاضِل :

والشمس مِن بينِ الأَرائِك قد حَكَت سـيفاً صقيلاً فى يدٍ رعشاء

(٢) وقال أبو الطيب المتنبى :

يَزُورُ الاعادى فى سماءٍ عَجاجةٍ أَسِنَّتُهُ فى جانِبَيْها الكواكِبُ

فتُسْفِرُ عنه والسُّيوفُ كأنما مضارِبُها مما انْفَلَلْنَ ضرائبُ

طلعن شموساً والغمودُ مشارِقٌ لهن وهامات الرجالِ مغارِب

(٣) وقال آخر :

والريح تَعْبَثُ بالغصونِ وقد جرى ذهب الاصِيلِ على لجَين الماء

(٤) وقال البحترى :

يَمْشُون فى زَغَفٍ[1] كأن مُتُونها ... فى كل مَعْرَكَةٍ مُتُون نِهاء[2]
بيض تسيل على الكُماةِ نصُولُها ... سَيْل السَّرابِ بِقَفْرةٍ بيداء
فإذا الأسنة خالطتها خِلْتَها ... فيها خيالَ كواكبٍ فى الماء

(٥) وقال أيضاً :

وتراه فى ظلَمِ الوغى فتَخَالُه ... قمَرا يَكُرُّ على الرجالِ بكوكبِ

(٦) وقال جميل :

غَرَّاءُ مِبسامٌ كأن حديثَها ... دُرٌّ تَحَدَّرَ نَظْمُهُ مَنْثور

(٧) وقال ابن خَفَاجَة الأَنْدَلُسِى :

وأسودٍ يسبح فى لجَّةٍ ... لا تَكْتُمُ الحَصْباء غُدرانُها
كأنها فى شكلِها مُقْلةٌ ... زرقاء والأسودُ إنسانُها

(٢)

اجتمع أديبان فى يوم من أيام الربيع ، فترافدا فى وصف الطبيعة على البديهة ، فقال أحدهما :

هذِى البسيطة كاعبٌ أبْرادُها ... حُلَلُ الربيعِ وحَلْيُها النوّارُ

فقال الآخر :

وكأنَّ هذا الجوَّ فِيها مُغْرَمٌ ... قد شَفَّهُ التعذيبُ والإضرارُ

---

(١) الزغف : جمع زغفة وهى درع الفارس المحكمة .
(٢) نهاء : جمع نِهْى وهو غدير الماء .

فقال الأول :

فإذا شكا فالبرق قلبٌ خافقٌ ، وإذا بكى فدُموعُه الأمطار

فقال الثانى

من أجلِ ذِلّةِ ذا وَعِزّةِ هذه يبكى الغَمامُ وتَضْحَكُ الأزهارُ

* * *

بين ما فى وصفِهما من تشبيهاتٍ ، ونوع كل تشبيه من حيث الأداة والوجه ، وعين طرفيه .

(٣)

كون من كل كلمتين متناسبتين من الكلماتِ الآتية تشبيهاً :

ثغر . غصن . دُرٌّ . قَدٌّ . شعر . ليل .

(٤)

اجعل كل لفظٍ من الألفاظِ الآتيةِ مشبّهاً به فى تشبيه بليغ :

طَوْد . خاتَم . البرق . النسر . شَفَق . غزال .

(٥)

هات تشبيهاً واذكر فيه الوجه والأداة ، ثم اجعله تشبيهاً بليغاً مع بيان السبب .

(٦)

اشرح الأبيات الآتية ، مع ذكر الوجه والأداة فى كل تشبيه لم يذكرا فيه.

(١) قال البديع :

هو البدرُ إلا أنَّهُ البحرُ زاخِراً سِوى أنَّه الضرغامُ لكنه الوَبْلُ

(٢) وقال ابن الساعاتى :

والطَّلُّ فى سلك الغصون كلؤلؤ رطبٍ يُصافحه النسيم فيسقط

(٣) وقال ابن التلميذ :

تقسم قلبى فى محبة مَعْشَرٍ بِكُلٍّ فَتًى منهم هَوايَ مَنُوطُ
كأنَّ فؤادى مركزٌ وهمُ له مُحيطٌ وأهوائى إليه خُطُوطُ

(٧)

اجعل كل لفظ من الألفاظِ الآتية مشبهاً فى تشبيه محذوف الأداة :

عيون . الطَّل الليل . قصور .

(٨)

صِف بإيجاز حديقة غناء ، وأتِ بثلاثة تشبيهات بليغة .

تشبيه التمثيل

قال شِهابُ الدين محمد بن يوسف التلعفَرى[1] يصِف الشمس حين طلوعِها :

ولاحت الشمسُ تَحْكِى عند مَطْلِعِها ... مِرآة تِبْرٍ بَدَتْ فى كَفِّ مُرْتعش

فمثّل الشمسَ حين تَطْلُعُ ، حمراءَ لامعةً مضطربةً ، بمرآةٍ من ذهب تَضطرب فى كفّ ترتعش .

وأنت تعرِف المشبه والمشبه به ، فإذا تَلَمَّسْتَ وجه الشبهِ وجدته صورة مأخوذة من أُمور متعددة ، هى أَن كلاً منها شىءٌ أحمر لامعٌ يهتزّ ويضطرب .

وما كان وجهُ الشبهِ فيه صورةً كما ترى يسمى « تشبِيه تمثِيلٍ » .

ومنه قول المتنبى يمدح سيف الدولة ويصف جيشه :

يَهُزُّ الجَيْشُ حولك جانبيه ... كما هزَّت جناحيها العُقابُ

مَثَّلَ لكَ جيش سيف الدولة وقد أحاطَ به ، وأتمر بأمره — فى صورة العقاب . فهو ذو جناحين يَمْتدان فى تماثل وانسجام ، لهما حركة منتظمة مُدَبَّرة ، ويستقِر بينهما القلب . وصَوَّرَ ما لِسيف الدولة من السلطان ، وحسن الطاعة ، وسرعة الاستجابة — بما لِلْعُقاب على جناحَيْها .

---

(١) شهاب الدين محمد بن يوسف من شعراء الدولة الأيوبية ، توفى سنة ٦٧٥ ، وهو منسوب إلى تل أعفر من بلاد الشام .

فالمشبه الجيشُ ، والمشبه به العقابُ ، أما وجه الشبه فقد أُخِذَ من أمور متعددةٍ ، وَصَوَّرَ لك من العُقاب صورةً تستطيع أن تَتَمَثَّلَ بها جَيْشَ سيفِ الدولةِ وقد أحاط به — فهو « تشبيه تمثيل » .

الخلاصة : تشبيه التمثيل : هو ما كان وَجهُ الشبه فيه صورةً مُنْتَزَعَةً من أمورٍ متعددةٍ .

تمرينـــات

(١)

ميز تشبيهَ التمثيل من غيره ، مع توضيح طرفَى كلٍّ تشبيه ، وَوَجه الشبه فيما يأتى :

قال السَّرِيُّ الرَّفَّاء :

وَكأنَّ الهِلالَ نونُ لُجَينٍ رسمت فى صحيفةٍ زرقاء

وَقال القاضى التَّنُوخِىّ :

كأن سوادَ الليلِ وَالفجرُ ضاحِكٌ يلوح ويخفى — أَسودٌ يتبسَّم

وَقال المتنبى :

وَما الموتُ إلا سارقٌ دقَّ شَخْصُهُ يصُولُ بلا كَفٍّ ويَسْعَى بلا رِجْل

وَقال محمود الورَّاق :

فاجاكَ من وَفْدِ المشيبِ نذيرُ وَالدهرُ من أخلاقِهِ التَّغْيِيرُ
فسوادُ رأْسِكَ وَالبياضُ كأنه ليلٌ تَدِبُّ نجومُه وَتسِيرُ

وقال دعْبل الخُزاعِىُّ :

أهلًا وَسَهلًا بالمشيبِ فإنه ... سِمَة العفيفِ وَحِلْيَةُ المتحرِّج
وَكأَن شيبِي نَظْمُ دُرٍّ زاهرٍ ... فى تاجِ ذى مُلْكٍ أَغَرَّ مُتوَّج

(٢)

بيِّن نوع كل تشبيه ، وَطرفيه ، وَوَجه شبهه فيما يأتى :

قال الشاعر :

كأَن شُعَاعَ الشمسِ فى كل غُدْوَةٍ ... عَلَى ورقِ الأشجار أوَّلَ طالعِ
دنانيرُ فى كفِّ الأشَلِّ يَضُمُّهَا ... لِقبْضٍ ، فتهوِى من فُروجِ الأصابعِ

وقال أبو القاسم الزاهى :

الريح تعصِف وَالأغصان تَعتَنِق ... وَالْمُزْنُ باكيةٌ وَالزهرُ مُعْتَبِقُ
كأَنما الليلُ جَفْنٌ وَالبروقُ له ... عَينٌ من الشمس تبدو ثم تَنْطَبِقُ

وَقال غيره :

حالِى وَحالُك كالهِلالِ وَشمسِهِ ... قد أَكْسَبَتْهُ النورَ فى إشراقهِ
فإذا نأَى عنها احْتَظَى بكمالِه ... وإذا دنا منها رُمى بِمحاقهِ

وَقال عبد الله بن المعتز :

كأَن سماءنا لَمَّا تَجَلت ... خِلالَ نجومها عند الصباحِ
رياضُ بنفسجٍ خَضِلٍ نداه ... تَفَتَّحَ نَوْرُه بين الأقاحِ

(٣)

ميز تشبيه التمثيل من غيره مع بيانِ السببِ فيما يأتى :

قال عبد الله بن المعتز :

أهدت إلىَّ التى نفسِى الفِداءُ لها ... الوردَ نوعَين مجموعين فى طبقِ
كان أبيضَه مِن فوقِ أحمرِه ... كواكبٌ أشرَقَت فى حُمْرَةِ الشَّفَقِ

وقال :

انظـــــر إلى الجَزَر الذى ... يحكى لنا لهَبَ الحريق
كمِذَبَّةٍ مِن سُـــــنْدُسٍ ... وَلَها نِصابٌ من عقيق

وقال :

وَكأنما النَّارَنْجُ فى أغصانِهِ ... من خالِصِ الذهبِ الذى لم يُخْلَط
كُرَةٌ رماها الصَّوْلَجان إلى الهوا ... فتَعَلَّقَتْ فى جَوِّهِ لم تَسْقُطِ

وقال ظافر الحداد :

وَليلةٍ مثلِ عَينِ الظَّبيِ داجيَـةٍ ... عَسَفْتُها — وَنجومُ الليل لم تَقِدِ
كأَن أنجمها فى الليـل زاهرةً ... دراهِمٌ وَالثُرَيَّا كفُّ منتقِدِ

وقال آخر :

فَرْعَاءُ تسحبُ من قيَامٍ شعرَها ... وَتغيبُ فيـه وَهو ليل أَسْحَمُ
فكأنها فيه نهـارٌ مشرقٌ ... وَكأَنهُ ليـــلٌ عليها مظلِمُ

وقالت الخنساء :

وَإِنَّ صخرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ به كأَنه عَلَمٌ فى رأسِهِ نارُ

وقال ابن وَكيع :

سُلَّ سيف الفجر منْ غِمْدِ الدُّجا وَتَعَرَّى الصُّبْحُ من ثوبِ الغَلَسْ

(٤)

تكلم على التشبيهاتِ الآتيةِ من حيثَ الوجهُ وَالأداةُ :

قال البهاء زهير :

وَالطَّلُّ فى أغصـــانِه يحكى عقوداً فى ترائِب
وَتفتـــحت أزهارُه فَتَأَرَّجَتْ من كل جانِب
وَبدا عـــلى دَوحاتِه ثَمَرٌ كأَذنَاب الثَّعالِب
وَكأنما آصـــاله ذهبٌ عَلَى الأَوراق ذائِب

وقال أبو الفضل الميكالى :

تَصُوغُ لنَا أيدى الربيع حدائقاً كعقْد عقيق بين سمْطِ لآلِى

وقال أبو الطيب المتنبى :

وَأمواه يَصِلُ بهَا حصاها صليل الحَلْىِ فى آيدى الغوانِى

وَقال السُّلامِي :

والأرض طِرْسٌ وَالرياض سطوره وَالزَّهرُ شَكلٌ بينها وحروف

(٥)

انثر الأبيات الآتية، و بين التشبيه الذى فيها ، وَطرفيهِ ، ونوعه، وَهى:

قال العباس بن الأَحْنَفِ :

لا جَزَى اللهُ دمعَ عينيَ خيرا وجزى اللهُ كلَّ خير لِسانِي
تَمّ دمعى فليس يَكْتُمُ شيئاً ووَجدتُ اللسان ذا كِتمانِ
كنتُ مِثل الكِتَابِ أخفاه طَيٌّ فاستَدَلُّوا عليه بالعُنوانِ

(٦)

اشرح البيتين الآتيين ، وَبيِّن ما فيهماَ من تشبيهٍ ، وَنوعَه ، مع توضيح طرفيهِ :

كم حاسِدٍ حَنِقٍ عَلَيَّ بِلاَ جُرْمٍ فلم يَضُرُرْنِيَ الْحَنَقُ
مُتَضاحِكٍ نحوى كما ضَحِكت نار الذُّبَالَة[1] وَهْى تحترِق

---

(١) الذبالة : الفتيلة أو لسان المصباح

اختِلافُ الذّوْق فى تقدير التّشبيه
باخْتِلاف البِيئَة والعُصُور

(١) قال طَرَفةُ بنُ العَبْد فى وصف سفينة :

يَشُقُّ عُبابَ الماء حَيْزُومها بها كما قسم الترب المفايِلُ باليَدِ

والمفايل لاعب يقسم الترب بيده فى لُعْبةٍ[1] كان فِتيانُ العرب يَلعَبونَ بها ، ولا نعرِف الآن تَفْصيلَها. فنجدُ هذا التّشْبيه لا يُوَضِّح شيئاً ؛ إذ كان المشبه به غيرَ واضِحِ الصّورة فى زَمننا . وقد لا يُرضى الذّوقَ فى عصرنا أنَّ لُعْبةً يُقَسَّمُ فيها التّرابُ باليدِ تُتَّخَذ مثلًا يشبه به سفينةٌ تَشُقُّ عُبابَ الماء بِصَدْرِها .

وقد كان لهذا التّشبيه فى عصره قَدْرٌ يَليقُ بشاعِرِيّة طَرَفة ، أما الآن فَلا نَرى له قَدْرًا .

(٢) ومن الأَمثلة المَذكورة فى التّشبيه قولُ الخنساء فى أَخيها صخر :

وإِن صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُداةُ به كأَنَّه عَلَمٌ فى رَأْسِهِ نارُ

---

(١) المفايلة : لعبة لفتيان العرب ، وقيل لصبيانهم ، يخبئون الشىء فى التراب ، ثم يقسمونه ، ويقول الخابئ لصاحبه: فى أى القسمين ؟ وهذا لا يكفى ، لأن المطلوب معرفة الطريقة فى قسم التراب ، لأنها هى المشبه به الذى تؤخذ صورته لبيان المشبه .

كان من عادةِ العرب الرِّحْلة فى الصّحراء ، وطول السَّفر بها . فكانوا يَتخيَّرون جَبلًا عالياً يُشرِف على الطريق يجعلونه مَنارةً يُهْتَدى بها فإذا جاء اللّيل ، وأَظْلَم الجوّ ، أَوْقدوا فى قِمَّته نارًا تَهْدى المُسافر ، حتى إذا جاءها وجَد السَّلامة ، والامْن والقِرى .

وتَعرِف فضلَ هذه الهِداية إذا تَمَثَّلْتَ قافِلة مُسافرة فى صَحْراء مُستويةٍ واسعةٍ لا تبلغُ العين مَداها ، وقد غَشِيَتْها ليلة مظلمةٌ شاتية ، فغطَّى السّحابُ نجومَها ، فغابَت المعالِم ، وخَفِيَ الطَّريق حتى على هادِى القافِلَة ودليلها . فإذا بَدَت هذه النَّار ، أَرْشَدت القوم وأَمَّنَتْهُم أنَّهم على الطَّريق ، ومَنَّتْهُم الرَّاحة والدِّفء والقِرى .

لذا جَعَلت الخَنْساء ذلك العَلَم مثلاً لأَخيها ، وأَحْسَنَت التّشبيه . ولكنا الآن لا نَكاد نُحِسُّ جَماله ومَنْزِلَته فى تمْجيد صَخر ، وتصوير مكانَته ؛ لأَن تلك العادَة قد دَرَست ونُسِيَت ، والحِسُّ بما فى هذه النَّار من نِعَم قد مُحِيَ من النفوس أَثَرُه .

وكنتَ إذا قَرأْتَ هذا التَّشبيه على عَربِيٍّ طَرِبَ له وتَرَنَّح ، وأُعجِب بالخَنْساء إذِ اهْتدتْ إلى هذه الصّورة فى تمجيد أَخيها .

أَما الحَضَرِيّ الذى لم يَخْبُر الصّحراء ، ولا عانى الرّحلة فيها ، فإنَّه لا يُحِسّ جَمال هذا التّشبيه إلا مُحاكاةً وتَقْليداً ، وقد لا يَسْتَسيغ أن تكون هذه الصّورة مَدْحاً أو تمْجيداً ؛ جَبَلٌ فى رأْسه نار ! !

فترى أن جمال التشبيه يتبع العصر والبيئة ، وأنَّ هذا الجمال قد يخفى إذا تبدَّلت الظُّروف ، وتغيَّرت الأحوال .

(٣) ونحن نُشَبِّه الأبيض باللبن فنقول : « هو أبيضُ كاللَّبن » لندُلَّ على قوة بياضه وصَفائهِ .

وفى البلاد التى تتراكم فيها الثُّلوجُ يقولون : « أبيض كالثَّلج » وتراكُم الثّلج يجعله أقوَى بياضاً وأصفى من اللَّبن .

ولكنا لا نراه فى بلادِنا ؛ لذا لا نَجِد لهذا التشبيه قيمة إلاَّ محاكاة وتقليداً ، ولا يُغْنى التَّقليد فى التَّوْضيح ، وحُسْن التَّصوير .

(٤) والعرب يُشَبِّهون الطَّلعةَ الجميلة بالبَدْر . وفى بلاد الشّمال يشبِّهونها بالشَّمس . وَإذا كنت فى الصّحراء ليلاً عرَفْتَ جمال القمَرِ والأُنْسَ به ، واسْتَحْسَنْتَ الذَّوْق العربىّ فى التَّشبيه بطلعَتِه . فإذا أقَمْتَ فى بلاد الشّمال ، حَيثُ يكثر الغَيم ، وتطول غَيْبةُ الشمس ، عَرَفْتَ أىّ بَهْجَةٍ يجد الناس فى طَلْعَتها ، وأىّ جمالٍ فى إشْراقِها ، وأحْسَسْتَ حُسنَ تَشْبيه الطَّلْعة الجميلة احبيبة بها .

(٥) وكان العرب يَكْرهون العَيْن الزَّرْقاء ، ويَعُدّونها دليلَ الخَتْل ، والمكر ، والنُّكْرِ . قال الشاعر :

وللبخيل عَلَى أمواله عِللٌ زُرْقُ العيونِ عليها أوْجهٌ سُودُ

ولا نُحِسّ اليوم فى زُرْقَةِ العين شيئاً مما يُستَقْبحُ ويُستَنْكر .

التعبير بالاستعارة

(١) إذَا أمطرت السَّماء فتفتَّحت الأزهار فى الأرض قيل :

« ضحكت الأرضُ من بُكاء السماء . »

ولم تَضْحَك الأرضُ حقيقةً ، ولم تَبْك السَّماء . وإنَّما أُريد بضَحِك الأرض تفتح زهرها ، وما فيها من بهجة كوجه الضاحك المبتهج .

وأُريد ببُكاء السماء ، تساقُط المطر وهى مظامة عابسة كما يَصْنَعُ الباكى .

فكلمة « ضَحك » لم تُسْتَعْمل فى معناها الحقيقىِّ الذى وُضِعَت له ، بل اسْتعيرت منه لتَدُلَّ فى هذا المَوْضِع على تَفَتُّح الزّهر ، وتجمُّل الأرض بما فيه من بَهْجة ونَضْرَة . ولو قيل أزْهَرَت لما مُثِّلَتْ لك بهجَتُها بأزْهارها هذا التَّمثيل الَّذى تُحسُّه .

ويُسَمَّى التعبير عن تفتُّح الزَّهْر بالضَّحك « تعبيرًا بالاستعارة . »

وكذا كلمة « بُكاء » لم تُسْتَعْمَل لتدُلَّ على معناها الأصلى ، بل اسْتُعيرَت منه لتَدُلَّ فى هذا الأسلوب على المطر . وقد صوَّرَ هذا التَّعبير السماء فى صورة الباكى العابس . ولو قيل أمطرت ما أفاد هذا .

ويُسَمَّى هذا « تعبيراً بالاستعارة » أيضاً .

فالتَّعبير بالاستعارة أنْ تَنْقُل اللَّفظ من معناه الأصلى ، ونستَعْمله ليدُلَّ على معنًى آخر بينه وبين المعنى الأول مشابهة ، كما ترى بين الضحِك وتَفَتُّح الزهر ، وبين المطر والبُكاء .

(٢) سار المتنبي فى طريق أعْجبَ به ، ظَلَّلَتْهُ الأشجار ، وحُجِبَت عنه الشمس إلاّ قطعاً منثورة من الضَّوء تُنير الطريق وتجمِّله ، فكان ممّا قال فيه :

فَسِرْتُ وقد حجبْن الشّمس عنّى وجِئْن من الضِّياء بما كَفانى
وألْقَى الشّمسُ منها فى ثيابى دنانيراً تفِرُّ من البَنَانِ

سلَك المُتَنَبِّي سبيلَ الاستعارة فى الدِّلالة على قطع الضوء الصغيرة التى تنشر على الأرض وعلى السائرين فيها ، فعبَّر عنها « بدنانير » تُنْثَرُ على ثيابه ، وتَفِرُّ من أصابعه إذا هَمَّ أن يَقْبِضَ عليها ، ومثل لك هذه الصورة الطَّريفة .

فكلمة « دنانير » استعارة ؛ لأنَّها لفظ نقل من معناه الأصلى ودُلَّ به على معنى آخر ، وبين المعنيين مشابهة .

الخلاصة : الاستعارة[1] لفظٌ استعمِلَ فى غير المَعْنى الذى وُضِعَ له ،

---

(١) والغالب فى الاستعارة أن تكون كما بين : يذكر لفظ المشبه به ويراد المشبه ، ويسمى علماء البيان هذه الاستعارة « تصريحية » .

وقد لا يذكر المشبه به ، بل يحذف ويكتفى عنه بذكر صفة من صفاته ، أو خاصة من خواصه ، مثل : نستضىء فى الظلمات برأيك . فالمشبه به شىء مضىء كالقمر يستضاء به فى الظلمة ، ولم يذكر القمر ، واكتفى عنه بذكر الاستضاءة . فهذا التركيب قد ذكر فيه المشبه وهو الرأى ، وخاصة من خواص المشبه به وهى الاستضاءة . ومثله نعيش من فيضك : المشبه به «البحر» ، حذف واكتفى بذكر الفيض إشارة إليه .

وهذا النوع من الاستعارة يسميه علماء البيان : « استعارة بالكناية »

لعلاقة المشابهة بين المعنيين ، مع وُجودِ قرينةٍ تَمنَع من أنْ يكون المُراد هو المعنى الأصلى .

وبعبارةٍ أُخرى : هى نوعٌ من التَّشْبيه حُذِفت فيه أداة التَّشبيه ، وَأَحَدُ طَرَفَيْه . وهى أبلغُ من التَّشبيه ؛ لأَنك تركتَ التَّعبير الذى يُشْعِر بالاثنينية ، وادّعيت أن ليس هناك إلاّ شىء واحدٌ تَتَحدَّثُ عنه.

الاستعارة فى المركب

وكما تكونُ الاستعارةُ فى لفظٍ مفرد تكونُ فى جملة ، كما ترى فى الأمثلة الآتية :

(١) فى كتاب كليلة ودمنة .

« من صَنَعَ المعروف لِعاجِلِ الجزاء ، فهو كمن يُلْقى الحبَّ للطير ؛ لا لينفعَها بل ليَصيدَها به . »

فى هذا الكلام تشبيه مُرَكَّبٌ : الطرف الأول حال رجلٍ يقدم المعروف لا للخير بل للربح ، والطرف الثانى حال صائدٍ يلقى الحَبَّ للطير لا ليطْعمَه بل ليصيدَه ، وأداة التشبيه الكاف .

فإذا حذفنا المشبه والأداة ، وقلنا لذلك الرجلِ : « إنَّك تُلقى الحبَّ للطير لا لتَنْفعَه بل لتصيدُهُ » — صار الكلام استعارة ؛ لأنه لا حَبَّ يُلْقَى . ولا طَيْرَ يحْتالُ لِصَيْدَه .

(٢) والناس يقولون لمن احتال فأدرك غايتين بتدبير واحد :

« رمى عُصفورَين بِحَجَرٍ . »

فيشبهون حالَ مَنْ يَحْتالُ فيُدْرِكُ أمرين بتدبيرٍ واحدٍ ، بحال من يَرْمِى حجرًا واحداً فيصيبُ عُصفورين ، وليس فى الكلام ذِكْرٌ لِلمشبه ، ولا لأداةِ التَّشبيه ، فهو « استعارة تمثيلية » .

وهذا النوع من الاستعارةِ يكثر فى الأمثال السائرة ؛ فمثلا :

« إنك لا تَجْنِي من الشَّوكِ العِنب . » يُضْرَبُ لمن يُسىء ثم يَرْتَقِبُ الإحسان ، أو من يُقَدِّمُ الشرَّ ويَنْتَظِرُ فى الجزاءِ عليه خيرًا . والمخاطب لم يَزْرَعْ شوكًا ، ولا انتظر أن يَجْنِيَ عِنَبًا ، فالكلام قد استعمِل فى غير ما وضِع له ، والمشابهة ظاهرة بين المعنيين ، فهو استعارة

أمثلة للاستعارة فى المركب

(١) ومن قَصَدَ البَحْر اسْتَقَلَّ السواقيا

(٢) إن الحديد بالحديد يُفْلَح .

(٣) ما لِجُرحٍ بميّتٍ إيلام .

(٤) إنَّ العصا من العُصَيَّة .

(٥) إنى أراك تُقَدِّمُ رِجلا وتؤخِّرُ أخرى .

(٦) أنا الغَريقُ فما خَوْفى من البَلَل .

(٧) فى لُجَّةِ البَحْر ما يُغْنى عن الوَشَل .

(٨) إنَّ السَّماء تُرَجَّى حين تَحْتَجِب .

(٩) وللسَّيْف حدٌّ حين يَسْطو ورَوْنَق .

(١٠) وفى اللَّيْلَة الظَّلماء يُفْتَقَدُ البَدْر .

(١١) متى يَبْلُغ البُنيانُ يوماً تَمامَه إذا كنت تَبْنيهِ وغيرُك يهدم

السِّرُّ فى جَمال الاستعارة

(١) كان الحُطَيْئَةُ الشاعِرُ هَجَّاءً شديدَ الهِجاء، فسجَنَه أمير المؤمنين عُمرُ بنُ الخَطَّاب ، وكان قد خلَّفَ وراءه أَطْفالاً له بوطنه « ذِى مَرَخ » قُرْبَ المدينة ، فقال وهو فى سِجنه يَسْتَعْطِف الخَليفَة :

ماذَا تقولُ لافْراخٍ بذى مَرَخٍ زُغْبِ الحَواصِلِ لا ماءٍ ولا شَجَرُ
أَلْقَيْتَ كاسِبَهُمْ فى قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فاغْفِر عليك سلامُ اللهِ يا عُمَرُ

فعبَّر عن أَولاده الصِّغار بأفراخ على سبيل الاستعارة . وليس ببَعيدٍ منك أَنْ تُدْرِكَ السِّرَّ فى جَمال هذه الاستعارة وبلاغتها ، إذا قِستها على التَّعبير بالحقيقة .

ففى هذه الاستعارة صَوَّرَ أَطفالَهُ طَيْرًا صِغاراً ضِعافاً ، لَمَّا تَرِشْ ، وقد حُبِس مُطعِمُها الذى يَسعَى لِيَقُوتَها ، فهى مُسْلَمَةٌ إلى عذاب الجُوع حتَّى يَقْتُلَها .

إنه لَتصويرٌ يؤَثِّرُ فى نفس الخليفة ، ويُثيرُ رحمته ، بل يَجْعَله كأَنَّهُ الجانى عليها إذا لم يُطْلِق لها كاسِبَها . هذا ما أفادته الاستعارة . ولو أنه سلَك سبيلَ الحقيقة ، وقال : تركْتُ أولادى صِغاراً ضعافاً جياعاً بلا مُطعِمٍ ولا عائل ، لأَطال ولم يَبلُغ من التَّأْثير ما بلغه التصوير بالاستعارة .

فجمالُ الاستعارة جاءَ من أنها تُصَوِّرُ المعنى تَصويراً مُؤَثِّرًا فى نفس السَّامع ، محقِّقاً لغَرَض القائِل ، من غير إطالَةٍ ولا إطناب .

(٢) وانظر إلى قول المتنبى :

رَمَيْتَهُمُ بِبَحرٍ من حديد له فى البَرِّ خَلْفَهُمُ عُبابُ

كان سبيل التعبير بالحقيقة أن يقول : « رميتَ أعداءَك بجيش عظيم العدد ، تامّ العُدَّة . » فعَدَل عن هذا إلى سبيل التَّعبير بالاستعارة ، واستعمل كلمة « بحر » لتدُلّ على الجيش .

فمَثَّل لك اتّساعَهُ ، وترامِيَ أطرافه ، وامْتداد جناحَيْه ، حتى لا تكادُ العينُ تُحيطُ به ، ومثَّلَهُ قوِيًّا شديد الحركة ، يَمُوج بعضُه فى بعض ، وجعل هذا البحر من حديدٍ ، فصَوَّرَ ما فيه من أسلحة وافرة تكاد تغطِّيه ، حتى لا ترى العين من الجيش إلا حديداً .

فقد حقَّقَت الاستعارة غرضَ القائل من تعظيم الجيش ، تعظيماً فيه مبالغة مقبولة ، ووضحت المعنى للسامع من غير إطالة وتَفْصيل فى الوصف .

فالسِّرُّ فى جمال الاستعارة يرجع إلى أنها تصوِّرُ المعنى المراد تصويراً يُحقِّق غرض القائل ، مع إيجازٍ فى اللَّفظ ، وشىء من المبالغة المقبولة .

وإذا وازنت بين الاستعارة والتَّشبيه ، وجدتَ التَّشبيهَ أكثر ما يستعمل للإيضاح ؛ ولذلك يكثُرُ استعماله فى باب الوصف وإيضاح الخيال ، أما الاستعارة فأكثر ما تُستعمَل للقُوة ، وشِدَّةِ التَّأثير فى السَّامعين ، وهى فى هذا أقوى من التَّشبيه .

موقع الاستعارة

متى تحسن ؟ ومتى لا تحسن ؟

مَرَّ بك من قبل قول الحُطَيئة :

ماذا تَقول لأَفْراخٍ بذى مَرَخٍ زُغْبِ الحَواصِلِ لا ماءٌ ولا شجرُ

وعرفت أنه استعار كلمة « أفْراخ » ليدُل على أَوْلاده ، فصوَّر ضعفهم ، وحاجَتهم إلى رعايته ، وحقق ما أراد من الاستعطاف والاسترحام

ولو أنه استعار كلمة « أشبال » مثلاً ، وهى فى الأصل لأَولاد الأُسود — ما صوَّر ما أراد من ضَعْف ، ولا حقَّق ما قصد إليه من اسْتِعطاف .

الاستعارة جاء من اختيار أَلْيَق مشبه به ، يُصوِّرُ المشبهَ فى صورةٍ تُحَقِّقُ الغرضَ من الكلام .

ويمكن أن ترى هذا فى بيت المتنبى الذى مرَّ بك أيضاً وهو : « رَمَيْتَهم ببحرٍ من حَديد » فلو قال : « رَمَيْتَهم بجَبَل » ما صور فى الجيش هذه الحياة والحرَكة القوية فى السَّعْى إلى العَدُوّ .

نعم يُمكن أن يُسْتَعَار للجيش كلمةُ « جَبَل » حين يُراد تصويرُ ثَبَاته واستقراره ، وامتناعِه على عدوٍّ يريد أن يُزَحْزِحَه عن مكانه . فتكون استعارةً حسنة فى موضِعِها .

أما هنا ، والأميرُ يسوق الجيش لِيُرْمَى به العَدُوُّ ، فلا يَحْسُنُ استعارةُ الجَبَل كما تحسن استعارة البحر . ولو أنه مَثَّلَه بحراً . ولم يَقُل من حديد لما صوّر وَفْرَةَ سِلاحه ، وقُوَّة استِعداده ؛ فقد تَرى حُسْنَ استِعارة المتنبى ؛ لأنه اختار أَلْيَق مُشَبَّهٍ به يُحقِّق غَرَضَه ، من تَعْظيم الجيش ، وَتَمجيد أميره .

وانظر قوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فى بُطونِهِم نَارًا . » استُعيرت « النَّار » لمالِ اليتامى لتَصَوُّرِ أكلِهِ مُبيداً مُهْلِكا ، ولتحقُّق ما يُرادُ من تَحذيرِ الناس أن ينالوا منه شيئاً

وإليك استعاراتٍ من نوع آخَر، نَعرِضُها عليك، ونسأَلُك أنْ تتأمَّل فيها لِياقَةَ المشبه به، وتحقيقَهُ للغرض من القول، ثم تَرى رأيك فى استِحسان الاستعارة، أو عدم استِحسانها.

قال المتنبى:

أَغَرَّ كُمُ طولُ الجيوشِ وعَرْضُها عَلِيٌّ شَرُوبٌ للجيوشِ أَكُول

أَراد أن يُمجِّدَ سيفَ الدَّوْلَةِ علىَّ بْنَ حَمْدانَ أميرَ الشامِ وفارِسَها فى عصره، وأن يُقَرِّرَ أنَّه لا يُبالى بجيوشِ العَدُوِّ مَهْما عظمت؛ بل يَقْهَرُها ويُبيدُها. فقال: إنَّه يَشْرَبُ الجيوشَ ويأكُلها مَهْما زِيدَ فى عَرْضها وطُولها، فهل وُفِّق إلى أَلْيَقِ مشبَّهٍ به يُحَقِّقُ غَرَضَهُ من تَمْجِيدِ مَمْدُوحِه؟ ما أَراك تَسْتَحْسِن هذه الاستعارةَ فى مَوْضِعِها، ولا تَرْضَى أن تُصَوِّرَ الأميرَ القائدَ شَرَّاباً للجُيوش أَكَّالاً لَها، وفيها ناسُها وحَيَوانُها وعُدَّتُها. فَهذه الاستِعارةُ تُخالِفُ الاستِعاراتِ الأولى الَّتى استَحْسَنْتَها، ورَأَيتَ بَلاغَتَها؛ لِأَنَّ هذه لم تَشْمَلْ أَلْيَقَ مشبَّهٍ به يحقِّق الغَرَضَ من القَوْل.

وقال أبو تمَّام:

لَنْ يَأْكُلوا هُمْ ولا عَشِيرَتُهُمْ ما كَنَزُوا مِنْ صامِتِ الحَسَبِ

يقول : إنَّ لهم من الحَسَبِ المُدَّخَر ما لا يَفْنَى ، فقال : لن يأتُوا عليه أكلا . فَتَمثَّلْ قَوْماً يأكُلون ما كُنِزَ لهُم مِن حَسَب ، ثم قدِّر ، أترَى اسْتِعارة حَسَنةً لائقةً بمَوْضِعِها ؟

ومن هذا قولُ الآخر :

وحرامٌ عليكِ أن تَقْرَعى ها مَـةَ قلبي بدمْعك المُهـراق

تمثلْ قلباً له هامة ، ودموعُ الحبيبَةِ عصًا تَنْهال على تلك الهامة قَرْعاً — أترى أن الشاعر يحسن أن يستعطِفَها ، وينالَ وُدَّها بهذا التَّصوير ؟

ونرى من هذا قول المتنبي :

ملكٌ منشدُ القريضِ لديهِ يَضَعُ الثوْبَ فى يَدَىْ بَزَّازِ

ولا نُحِب أن نُكْثِرَ عليك من عَرْضِ هـذه الاستعاراتِ التى لم يُوَفَّقْ قائلوها ، فلم تَحْسُنْ فى مكانها ، وإنما أردْنا أنْ نُنبِّهـكَ إلى فَرْقِ ما بين الاستعارةِ المُسْتَحْسَنَةِ وغَيْرِ المستحسنة ، ونَدُلَّكَ على سبيل الاستحسان . فإذا مرَّت بك استعارةٌ وزنتهـا به ، وقَدَّرْتَ حُسْنَها بمقدار ما فى المشبه به من لِياقَتِهِ ، ليُصَوِّرَ المُشَبه فى صورة تُحَقِّقُ غرضَ القائل .

أمثلةٌ للاستعارة

من جيد النثر والشعر

فى الكتاب الكريم ، وفى حديث المُصْطَفَى « صلَّى الله عليه وسلم » ، وفى شِعْرِ النَّابِغين من الشُّعَراء والكُتَّاب كثيرٌ من الاستعاراتِ الجيِّدةِ ، إذا تأمَّلْتَ الكلامَ ظَفِرْتَ بها ، وأمْتَعَك ما فيها من جَمالٍ ، ومن حُسْنِ تَصْويرٍ للمعانى ، ثم نَمَّى ذلك ذَوقك فى نَقْدِ البيانِ ، وملَكَتَكَ فى حُسْنِ التَّعْبيرِ .

(١) قال اللهُ تعالى :

« كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ . »

فالظُّلماتُ : ما كانَ فيه النَّاسُ زمنَ الجاهِليَّة من شِرْكٍ ، وضَلالٍ ، وجَهْلٍ أَوْقَع بَيْنَهُم العَداوَةَ والبَغْضاء ، وأسالَ الدِّماء .

والنُّورُ : الدِّينُ القَيِّمُ بَصَّرَهُمْ وَهَدَاهُمْ إلى الصِّراطِ المُسْتَقِيمِ .

(٢) وقال تعالى :

« واذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ . »

فاستُعِير التَّخَطُّفُ لِلاعْتداء والإيذاء ؛ لِيُصَوِّرَ ما كانوا فيه من فَزَعٍ وخَوْفٍ واضْطِراب ، وأَنَّهم كانوا يُؤْخَذُون من كُلِّ طَرَفٍ مباغَتِين على غَيْرِ أُهْبَةٍ ولا اسْتِعْدادٍ .

وقال تعالى :

(٣) « وكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها . »

كان العَرَبُ فى الجَاهِلِيَّة بِسَبِيلِ أَنْ يُهْلِكَ بَعْضُهُم بَعْضًا ؛ لِما بَيْنَهم من خُصُومَةٍ وعِدَاءٍ ، ومن غاراتٍ وحَرْب . فَصَوَّرهم فى صُورَةِ مَنْ كان على حافَةِ حُفْرَةٍ مُلِئَتْ نارًا ، لا يَلْبَثُ أَنْ تَزِلَّ به قدَمُه فيَهْوِىَ إلى النَّار .

(٤) وقال تعالى :

« أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّم . »

فَتَمَثَّلْ بِناءً أُقِرَّت أُسُسُه على حافَةِ نَهْرٍ تَجْرُفُها المِياه ، فَهِىَ مُنْهارَةٌ مُتَساقِطَةٌ ، وقَدِّرْ ما له من بَقاءٍ أو اسْتِقْرار . فهذا مَثَلُ العَمَل أُسِّسَ على نِفاقٍ ورِياءٍ ، لا قَرارَ له ، ولا بَقاء إلَّا رَيْثَما يَنهارُ .

(٥) وقال تعالى :

« إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ . »

حقيقَتُهُ : لمَّا عَلَا الماءُ وزادَ ؛ والاستعارة أَبلغُ وأَدَلُّ على المعْنى ؛ لِما فى الطُّغْيان من مَعْنى الغَلَبَةِ والقَهْر .

(٦) وقال المتنبي :

أُصادِقُ رُوحَ المَرْءِ من قَبلِ جِسْمه وأُبْصِرُه فى فِعلِه والتَّكلُّمِ

وإِنَّ نَظَرَكَ ليَهْدِيكَ إِلى جَمالِ الاسْتِعارَةِ فى «أُصادِق» و « ابْصِر » ، وفَضْلِها على التَّعْبير بالحَقِيقة .

* * *

وهذه أبياتٌ فيها استِعاراتٌ أَشَرْنا إليها ، وتَرَكْنا لِذَوْقِك تَقْدِيرَ حُسْنِها :

(١) وتَغْضَبُون على مَنْ نَالَ رِفْدَكُمُ حَتَّى يُعاقِبَه التَّنْغِيصُ والمِنَنُ

(٢) جُمِعَ الحَقُّ لنا فى إِمَامٍ قَتَلَ البُخْلَ وأَحْيا السَّماحا

(٣) ولاحَ بَرْقُكَ لى مِنْ عارِضَىْ مَلِكٍ ماينزلُ القَطْرُ إِلَّا حَيْثُ يَبْتَسِمُ

وفى البيتَيْن الآتيَيْن لابن المُعْتَزِّ استِعاراتٌ نَتْرُك لك أَن تُمَيِّزَها ، وتقَدِّر حُسنَها .

أَمَا تَرَى الأَرْضَ قد راقَتْكَ زَهْرَتُها مُخْضَرَّةً واكْتَسَى بالنَّوْرِ عارِيها

وللسَّماء بُكاءٌ فى حَدائِقِها وللرِّياض ابْتِسَامٌ من نَواحِيها

اخْتِلافُ الأَذْواقِ فى تَقْدِيرِ الاسْتِعَارَةِ بِاخْتِلافِ العُصُورِ وَالْبِيئَةِ

الاسْتِعارةُ أَساسُها التَّشْبِيهُ ، وإذا كان التَّشْبِيهُ يَخْتَلِف التَّقديرُ فى قِيمَتِه وحُسْنِه تَبَعا لِلزَّمَن والبِيئَة ، فكذلك الاستعارةُ .

(١) قال الشَّاعرُ :

ولقد نَهَزْتُ مع الغُواةِ بِدَلْوِهم ... وأَسَمْتُ سَرْحَ اللَّهْوِ حَيْثُ أَسامُوا
وَبَلَغْتُ ما بَلَغ امْرُؤٌ بِشَبَابِه ... فإذا عُصَارة كلِّ ذاك أَثَامُ

واسْتَحْسَن الرُّواة قَوْلَه ، وتَخَيَّروه له .

وقد قال : إنّى ساَبَقْتُ الغُواةَ فى الغَىِّ ، وأَرسَلْتُ نَفْسى حيثُ شاءَتْ فى مَسَارِحِ اللَّهْوِ .

واستعارَ لِلْمُسَابقة فى الغَىِّ المسابقةَ فى إخراجِ الماء مِنَ البِئْر بالدَّلْوِ ؛ لِأَنَّ هذا العَمَلَ كان من الرِّياضَةِ الَّتى يَتَسابَقُون فيها ، ويَتَغالَبُون بها . وأَيُّهم استعمل دَلْوًا أَكْبَرَ ، واسْتَخْرَجَ ماءً أَكْثَرَ ، فَهُو الأَقْوى[1]

---

(١) ومن ذلك أصل كلمة المساجلة : وهى أن يأخُذَ رَجُلٌ سَجْلاً ، أى دَلْوا ، ويأخُذَ الآخَر مِثلَه ، فَيَتَساجَلان : أى يتسابقان فى الملء . قال الشاعر :

من يُساجِلْنى يُساجِلْ ماجِداً ... يَمْلَأُ الدَّلْو إلى عَقْدِ الكَرَبْ

ثم صارت المساجلة للمغالَبة بالحُجَّة والرَّأْى .

فأخذ الشاعرُ هذه الصُّورةَ وقال :

ولقد نَهَزْتُ مع الغُواة بِدَلْوِهِمْ .

وكذلك كانوا يُرسِلون الإبِل إلى المراعى الواسِعَةِ تَأْكُل حَيْثُ تشاء ، فهى السائمة . وأسَامَها يُسيمها : أَرْسَلَها تَرْعَى ، وتسمى الإبلُ فى هذه الحالة « سائمة » فقال :

وأَسْمت سَرْحَ اللَّهْوِ حيثُ أساموا . »

ولكن اليوم قد خَفِيَت الصُّورتان ؛ ذَهَبَت الأُولَى ، وقَلَّت الثَّانِيَةُ . فلم تكن استعارتُهما بموضِّحَةٍ ، ولا راسِمَةٍ صُورَةً جَلِيَّةً ، كما كان ذلك فى زَمَنِهما .

(٢) وَإذا ساء ما بين الصَّدِيقَيْنِ قالت العرب : « يَئِسَ الثَّرَى بَيْنَهُما . »

يَقْصِدُون إلى حالَةِ الأَرضِ الَّتى لَمْ تُرْوَ ، ولم تُنْبِت ، فَيَبِسَتْ ، وأَقْفَرَت ، ويَجْعَلُونها مِثَالا لِمَا بَيْنَ الصَّدِيقَيْنِ إذا فسَد ما بَيْنَهُما وَتَقاطَعا .

(٣) ويقول غير العرب : جَمَدَ الثَّلجُ بينهما ؛ لأَنه إذا انْثَلَجَ الماء ، وجَمَد بَيْنَ سَفِينَتَيْنِ ، اسْتَحالَ أَنْ تَصِلَ إحْداهُما إلَى الأُخْرَى ، فاستُعِيرَ ذلك لِحال الصَّدِيقَيْنِ إذا تَقاطَعا . وَتَرى هذا التَّعْبِير يَتَّضِحُ مَعْناه ، وَيَحْسُن اسْتِعْمالُه فى بلادٍ ذاتِ بحارٍ قد يَنْثَلِجُ ماؤها . فتدُلُّ الصُّورَةُ المرْئِيَّة على ما يُرادُ تَصْوِيرُه مِمَّا بَيْنَ الصَّدِيقَيْنِ من قَطِيعَةٍ ، وعَدَم تَواصُلٍ .

أما العِبارَةُ رقم (٢) فتُسْتَحْسَنُ فى بَلَدٍ ذى مَراعٍ وَأمطارٍ ، فإذا نزَلَتِ الأمطارُ أمْرَعَت ، وَبَدَا خِصْبُها وجمالها . وإذا حُرِمَت المطرَ يَبِستْ وأجْدَبَتْ ، وبَدَت وَحْشَتُها وإقْفارُها .

فلا تَحْسُنُ الاستِعارةُ فى مَوضِعِها حتى تكونَ الصُّورَةُ المشبَّهَةُ بها مَعْرُوفَةَ ظاهرة ، تُصَوِّر ما تريد أن تُصَوِّرَه وتُوَضِّحَه .

وقالت العرب : أَناخَ عليه بكَلْكَلِه . وأَلْقَى عليه جِرانَه . وَضَرَّسَه بأَنْيابِهِ . وَوطِئَه بِمَنْسِمِه . وأَلْقَى الحَبْلَ على الغارِبِ . واقْتَعَدَ غارِبَ المَجْدِ وسَنامَه . وما زال يَفْتِل منه فى الذِّرْوَة والغارِب . ولا ناقة لِى فيها ولا جَمَل .

وأَخَذَتْ ذلك كلَّه ، وكثيرا غَيْرَه ، من الإبِلِ ، وكان واضحَ الدِّلالَة عِنْدَهم ، حَسَنَ التَّصْوِيرِ لِما يُرِيدُون ؛ لِأَنَّهُم كانوا يَأْلَفون النَّاقَةَ أىَّ إلْفٍ ، وَيَعْرِفُون أَجْزاءها وأَعْمالَها ، فاسْتَمَدُّوا مِنها الاسْتِعارات المُخْتَلِفَةَ ، وَوسَّعوا بها اللُّغة ، وكثَّروا سُبُلَ التَّعبير . ونحن لا نستعمِلها كلَّها الآن ؛ إذ لا توضح لنا ما كانتْ توضِّحُ للعرب وهم يَرَوْنَ الناقةَ ، ويعرِفون بالدِّقةِ صفاتِها وخصائِصَها .

وقد تجِدُ فى لغة الذين يجوبون البحار ، ويُطيلُونَ الحَياة فى السفن — استعاراتٍ كثيرةً ، أساسُها السَّفينةُ ، كما كان الجَمَلُ فى الصحراء .

الكنـــايـة

(١) إذا كُنْتَ فى قَوْم يستَمِعُون لخَطيبٍ ، ثمَّ رَأَيْتَهُم يُرَدِّدُون النَّظَرَ إلى ساعاتِهِمْ ، فَهِمْتَ أنهُمْ أدْرَكَهم من الاسْتماع سَأَمٌ وَمَلَلٌ ؛ لأنَّ السَّآمَةَ تَسْتَلْزِم هذا العملَ عادةً .

وتَسْتَطِيع أنْ تَنْتَفِعَ بهذه المُلازَمةِ فى التَّعْبيرِ ، فتقولَ :

« أخَذَ المُسْتَمِعون يُرَدِّدون النَّظَرَ إلى ساعاتِهم . » بدل أن تقول : أخَذوا يَسْأَمون ، أو يَمَلون الاسْتِماع .

(٢) وترى النَّدَم يَستَلْزِم عادةً العَضَّ على الأصابع ، فتقول :

« إنَّ الظَّالِمَ لَيَعَضُّ عَلَى يَدِه يوم يُحاسَبُ على عَمَلِهِ . » بَدَل أنْ تقول : « إنَّ الظَّالِم لَيَنْدَمُ يوم يُحاسَبُ . »

(٣) وكذا ترَى المُلازَمةَ وَاضِحَةً بين التَّثاؤُبِ وَغَلَبَةِ النَّوْم فتستَطيعُ أن تقولَ :

« أخذَ المُتَسامِرونَ يَتثاءبون . » بَدَلَ أنْ تقول : « أخذَ يُغالِبُهم النومُ . »

والتَّعْبيرُ بهذه العباراتِ وهى :

(١) أخَذَ المُستَمِعونَ يُرَدِّدون النَّظَرَ إلى ساعاتِهِمْ .

(ب) إنَّ الظَّالِمَ لَيَعَضُّ عَلَى يَدَيْه يوم يُحَاسَب .

(ج) أخذَ المُتَسامِرون يَتَثَاءبون .

يُسمَّى « تَعْبيرًا بالْكِنايَةِ . »

فسبيلُ التَّعْبير بالكِناية أنْ تَنْظُرَ إلى المَعنَى الَّذى تُرِيد أداءهُ ، فلا تعبِّر عنه ، باللَّفْظ الدَّالِّ عليه لُغَةً ، بل تَقْصِد إلى لازِمٍ لهذا المَعْنَى فَتُعَبِّر عنه ، وتُفهِم به ما أرَدْتَ .

أسباب استعمال الكناية

ونَسْتَعْمِل الكِناية لِتُحَقِّقَ الأغراضَ الآتيةَ :

(أولاً) تَصْوِير المعنى تَصْوِيراً واضِحًا مَصْحُوباً بما يُؤَيِّدُه ، ويكون كالْحُجَّة له ؛ وذلك كالْكِناية عن الْحُزْن بتَقْطِيبِ الْجَبين ، وعن الغَضَب بانْتفاخِ الأوْداجِ ، وعن الْحَسْرَةِ والنَّدَمِ بالْعَضِّ على الأصَابع .

فهذه الصِّفاتُ الْخَفِيَّةُ قد مَثَّلْتَها ظاهِرَةً مَرْئِيَّةً ، وزَعَمْتَ أنها استقرَّتْ وَتبِعَها أثَرُها ، وتَحقَّقَ ما يُلازِمُها ، فقدَّمْتَ دَعْواكَ بحُجَّتِها ، والدَّليلِ الَّذى يُؤَيِّدُها .

(ثانياً) تَحْسين المعنى وتَجْميله ، مع تَعْمِيَةِ الأمْرِ على السَّامِعين وَإيهامِهم ؛ كقَوْلِهم فيمن لايُحْسِنُ الشِّعْر : « إنَّه نَبِيُّ الشِّعْرِ » ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقول فى نَبيِّه : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ . »

وكقولهم فى المَرْأة السَّمِينة : « خَرْسَاءُ الأساوِرِ . »

وكَقَولِ المتنبِّي يُعَرِّضُ بِسَيْفِ الدَّوْلة :

رَمَى واتَّقَى رَمْيِي وَمِنْ دُونِ مَا اتَّقَى هوًى كاسِرٌ كَفًّى وقَوْسى وأسْهُمِى

(ثالثاً) تَهْجين الشيء والتَّنْفِيرُ منه ، كما فى قوله تعالى :

« وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِك . »

كَنَّى بذلك عن البُخْل ، فصوَّر المعنى فى صُورَة تُحَسُّ وتستَنْكَر ، للتَّنْفِير منها ، والحثِّ على مُجانَبَتِها .

(رابعاً) العُدول عن ذِكْر شَيْءٍ بلَفْظِه الدَّالِّ عَلَيْه لِهُجْنَتِهِ ، إلى لَفْظٍ آخَرَ يَدُلُّ عَلَيْه ، مِنْ غَيْر اسْتِكْراه له ، ولا نُفُورٍ منه كَالكِنايَةِ عن الصَّمَمِ بِثِقَلِ السَّمْعِ .

السِّرُّ فى بَلاغَةِ الكِنايَةِ

عرفتَ أنَّ الكِناية هى تَأَدِيَةُ المعنى بِذِكْرِ لازِمٍ من لوازِمِهِ ، واللاَّزِمُ يَسْتَدْعِى وُجودَ المَلْزوم حَتْماً ؛ فإذا عَدَلْتَ عَن التَّصْرِيح بالمَعْنى إلى الكِناية عنه ، فقد أدَّيْتَه مَصْحُوبا بدَلِيلِهِ ، وعَرَضْتَه مَقْرونا بحُجَّتِهِ . وذِكْرُ الشيء يَصْحَبُهُ بُرْهانُه أوْقَعُ فى النفْسِ ، وآكد لِإثْباتِه . وهذا سِرُّ بلاغتها .

اُنْظرْ إلى قَوْلِ المتنبي فى وَقْعَةِ سَيْفِ الدَّوْلة بِبَنِي كلاب .

فَمَسَّاهُمْ وبُسْطُهُمُ حَرِيرٌ وَصَبَّحَهُمْ وَبُسْطُهُمُ تُرابُ

فإنَّهُ كَنَّى عن سِيادَتِهم وَعِزَّتِهم ، وَكَثْرَة أَمْوَالِهِم « بأَنَّ بُسْطَهُم حرير » ، وكَنَّى عن حاجَتِهم وإذْلاَلِهِم ، وذَهَابِ ما فى أيْدِيهم « بأَنَّ بُسطهم تُرابٌ . »

وَالْكِناية فى الحالَتَيْن تَصْوِيرٌ وَبُرْهانٌ على الْمَكْنِيِّ عَنْه .

وقد سَبَقَ لك أَسْبابُ اسْتِعْمالِ الْكِناية، والغَرَضُ الذى تُساقُ من أَجْلِهِ . وكُلَّما كانَت الكِنايَةُ أَتَمَّ تَحْقيقاً لِلْغَرَض الَّذى سِيقَتْ مِن أَجْله ، كانت أَتَمَّ قُوَّةً وبلاغَةً .

ضُرُوبُ الكِنَاية

(١) قَدْ تَكُونُ الكِنايَةُ كِنايَةً عن صِفَةٍ فتقول :

« هو رَبِيبُ أبى الْهَوْل » تَكْنى عن كِتْمانِهِ لِسِرِّهِ . وتقول فى البَخِيلِ الَّذى يَجمعُ مالَه ، ولا ينتَفِعُ به : « هو خَازِنُ مالِه » أو « هو حَاسِبٌ فى مَصْرِفٍ . »

ويقولون لمن تَقَدَّم فى السِّنِّ: «قدسقَطَتْ عنه التَّكالِيف » وتقول : « فلانٌ لا يَثْبُتُ كلامُهُ على السبْكِ » إذا كانَ غَيْرَ دَقِيقٍ فيما يقول .

(٢) وقد تُذْكَرُ الصِّفة وتكونُ الكِنايَةُ فى نسبَتِها إلى المَوْصُوفِ، كما فى قَوْل أبى نُوَاسٍ :

ما جَازَه جُودٌ ولا حَلَّ دُونَه ولكن يَسيرُ الجُودُ حَيْثُ يَسيرُ

وتقول العرب :

« المَجْدُ بَيْنَ ثَوْبَيْه ، والكَرَمُ بَيْنَ بُرْدَيْه . »

وتُسمَّى الكِنايَةُ فى هذه الحالَةِ « كنايةً عن نِسبَةٍ . »

(٣) وقد يشار بها إلى موصوف كما تقول :

« أبْنَاء النِّيلِ » — تَكْنِى عن المِصْرِيِّين .

« ومَدِينة النُّور » — تَكْنِى عن باريسَ .

وقالوا : « تَستَغْنى مِصْرُ عن مَصَبِّ النيلِ ولا تَستَغْنِى عن مَنْبَعِهِ . »

كَنَّوا بِمَنْبَع النيل عَنْ بلادِ السودانِ .

فَضُروبُ الكِنايَةِ ثَلاثَةٌ :

(ا) كِنَايَةٌ عَنْ صِفَةٍ .

(ب) كِنَايَةٌ عَنْ نِسْبَةٍ .

(حـ) كِنَايَةٌ عَنْ مَوْصُوفٍ .

أمثلة للكناية

من جيد النثر والشعر

(١) قال الله تعالى :

« وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . »

كنى بالعضّ على اليدين عن النّدم .

(٢) وفى سورة الكهف — فى صفة رَجُل أنعم الله عليه بحديقة فيها نَهْرٌ وَشَجَرٌ وثمرٌ طيّبٌ ، فأدركه الغرورُ والكِبْر ، ولم يعرف لهذه النّعمة حقّها من الشُّكر ، حتى نابتْهُ نائبةٌ أهلكتْ شجرَهُ وثمرَه — قال تعالى : —

« وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً . »

كنى بتقليب الكفين عن الحسرة

(٣) وقال الشاعرُ يرثى رَجُلاً مات بعِلّةٍ فى قلبه :

ودَبَّتْ لهُ فى مَوْطِنِ الحِلْمِ عِلَّةٌ لها كالصِّلالِ الرُّقْشِ شَرٌّ دَبيبِ

ومَوْطِن الحِلْم كِنايةٌ عن القَلْب .

(٤) وقال آخر :

يَبِيتُ بِمَنْجاةٍ من اللَّوْمِ بَيْتُها إذا مَا بُيُوتٌ بالمَلَامَةِ حُلَّتِ

كنى بذلك عن طهارتها وعفافها

(٥) وقال المتنبي :

الْمَجْدُ عُوفِيَ إذ عُوفِيتَ والكَرَمُ وزَالَ عنك إلى أعْدَائِكَ السَّقَمُ

كنى بذلك عن كونه ماجداً شريفاً

(٦) وقال السَّرِيُّ الرَّفَّاء :

مواطِنُ لم يَسْحَبْ بها الغَيُّ ذَيْلَهُ وكَمْ لِلْعَوالِي مِنهما من مَساحِب

كنى بذلك عن طهارتهم وشجاعتهم

(٧) ويقولون : فلانٌ نَقِيُّ الثَّوْب — أى لا عيبَ يُؤْخَذُ به . وهو قليلُ الهَمّ ، خَلِيُّ البال — إذا كان وَضِيعاً لَيْسَ ذا شَأْنٍ .

(٨) وقال الشاعر :

دَعِ المَكارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِها واقْعُدْ فإنَّكَ أنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِى

كنى بأنَّه طاعم كاسٍ عن ضَعْفِ هِمَّته ، وعجزه عن السعْيِ .

(٩) وقال غيره :

ويُقْضَى الأمْرُ حين تَغِيبُ تَيْمٌ ولا يُسْتَخْبَرون وهُمْ حُضورُ

كنى بِذَلك عَنْ ذِلَّتهم ، وَضَعَةِ شَأْنِهم .

(١٠) كان عليه الصَّلاة والسلام فى سفر ، ورأى سائِقَ الإبل يسوقها سَوْقاً عنيفاً فقال له :

« يا أَنْجَشَة ؛ رُوَيْدَكَ سَوْقَكَ بالقوارير . »

وأَنْجَشَةُ اسمُ السائق ، وكَنَّى بالقوارير عن النِّساء فَوْقَ الإبل .

(١١) قال عُبَيْدُ الله بن قَيْس الرُّقَيَّاتِ :

« لا أشَمُّ الرَّيْحَانَ إلَّا بِعَيْنِي . »

كَنَّى بالريحان عن النساء .

(١٢) وقال دريد بن الصِّمةِ فى رثاء أخيه عبد الله :

فإن يَكُ عبدُ اللهِ خَلَّى مكانَهُ فما كان وقَّافاً ، ولا طائِشَ اليـد

جعل : « خلى مكانه » كنايةً عن الموت .

(١٣) وقال الشاعر ، وكان عبداً رقيقاً فباعه مولاه :

وما كنتُ أخشى مَعْبَدًا أن يَبيعنى بمالٍ ولو أضحت أنامِلُهُ صِفْرا

أخوكُم ، ومولاكم ، وصاحبُ سِرِّكُمْ ومن قد ربى فيكم وعاشَرَكُمْ دَهْرا

جعل : « أضحت أنامله صِفرا » كناية عن الفقر .

(١٤) قال ابنُ مَيَّادَةَ :

أَلَمْ تَكُ فى يُمْنَى يَدَيْك جَعَلْتَنِى فلا تَجْعَلَنِّى بَعْدَها فى شِمالِكا

كان قد أكْرَمَه فيسأله ألا يُهينه بَعْدُ ؛ فكَنَّى بالجَعْلِ فى يُمْنَى اليَدَيْنِ عن الإكْرَامِ ، وبالجَعْلِ فى شِمالِهما عن الإهَانَةِ .

(١٥) كان الفضلُ بنُ يَحْيى وَزيرًا لِلرَّشيد ، فأرادَ الرَّشيدُ أن يُنَحِّيَه عن الوِزارَةِ ويُوَلِّىَ أخاه جَعْفرًا ، وأمَرَ كاتِبه ألا يَجْعَل فى الكتابِ مَعْنى العَزْلِ ، فأرْسَل الكاتِبُ إلى يَحْيى أبِى الْوَزير — وكان الرَّشيدُ يُجِلُّه ويقول له يا أبتِ — ما يأتى :

« إن أميرَ المُؤمنين أرَادَ أن يُحَوِّلَ الخاتَمَ من يَمينك إلى شِمالك . »
كنَّى باليمين عَن الْفَضْلِ ، وبالشِّمالِ عن جَعْفَرٍ ، وكان أصغرَ سِنًّا .

(١٦) قال أَحَدُ الشُّعَراء :

لم أُقَبِّلْ فاه لَـكِنْ قَبَّلَت كَفِّى قفـاه

(١٧) كان أحَدُ الأُدباء ثَقِيل السَّمْع ، وحَدَّثَه مُحَدِّث بصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ خافِتٍ فقال له :

« ارْفَعْ صَوْتَك فإنَّ بِأُذُنِى بَعْضَ ما برُوحِك . »

الفرقُ بين التشبيه والاستعارةِ والكنايةِ

(١) التَّشبيه : الدِّلالةُ على مُشارَكَةِ أمرٍ لآخَرَ فى مَعْنًى مِن المعانى ؛ مِنْ غَيْرِ أن يُنْقَلَ لَفْظٌ عَن مَعْناه الأصْلِيِّ الذى وُضِعَ له .

فإذا قُلْت : الْعِلْمُ كَالنُّورِ فى الهِدايَةِ ، كنت قد اسْتَعْمَلْتَ كُلَّ كَلِمَةٍ فى معناها الأصْلِيِّ ، ولم تُخْرِجْها إلى غَيْرِه .

(٢) الاِسْتِعارَةُ : نَقْلُ اللَّفْظِ مِنْ مَعْناه الأصْلِيِّ الذى وُضِعَ له ، إلى مَعنًى آخَرَ بينه وبين المَعنَى الأصلِيِّ مُشابَهَةٌ ؛ لِقَصْدِ الْمُبالَغَةِ .

ففى الآيَةِ الكَرِيمَةِ : « كِتابٌ أنْزَلْناهُ إلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ . »

دلت الظلماتُ على الجَهالة والضَّلالِ ، ودلّ النُّورُ على الهداية ، فنُقِلَت الكلمة فى كلٍّ من الموضعين عن معناها الأصلى ، واسْتُعْمِلَتْ فى معنى آخر ، وبين المعنيَين مشابهة .

(٣) الكناية : التَّعبير عن معنًى مَسْتُورٍ بلازمٍ له ، يشير إليه ، ويدل عليه . ولفظُها صالحٌ لإرادة المعنيين معاً ، فإذا قلت : « علىٌّ نقىُّ الثَّوب » تَكْنِي عن نقاء مَسْلَكِهِ وبُعدهِ من العيب ؛ وقد يكون مع ذلك نَقِيَّ الملْبَسِ أيضاً .

تمرينـــات

(١)

بين الكناية مما يأتى ، واذكر السببَ فى استعمالها :

(١) ضَرَبَت سُرادِقَهَا المهَابَةُ فوقَهُ ... فإذا بَدا بادَتْ به الأَعـداء

(٢) إذا كنت مُرتادَ السَّماحة والنَّدى ... فَسَائِلْ تُخَبَّرْ عن ديارِ الأَشاهِبِ

(٣) إنَّ السَّماحة والمُرُوءة ضُمِّنَـا ... قَبرًا بِمَرْوَ على الطَّريق الواضِح

(٤) اليُمْنُ يَتْبع ظِـلَّهُ ... والمجدُ يَمْشِى فى رِكابه

(٥) فلَسنا على الأَعقابِ تَدمَى كُلومُنا ... ولكن على أَقدامِنا تقْطُرُ الدِّما

(٦) بيضُ المَطابخ لا تشكو إماؤُهُمُ ... طَبْخَ القُدورِ ، ولا غَسْلَ المناديل

(٢)

فيما يأتي كنايات ، عينها ، وبين ما يراد بكلٍّ كناية منها ، ووضح سرَّ بلاغتها :

(١) سعيد مأمونُ الغَيْبِ ، مَبْسُوطُ اليَدِ ، كثيرُ الإخوان .

(٢) النِّفاقُ بيْنَ بُرْدَى اللّئيم ، والجودُ يسيرُ حَيْثُ يسيرُ الكريم .

(٣) وإنْ ذُكِرَ المجـــدُ ألفيتَهُ تأزَّرَ بالمجدِ ثمَّ ارتـــدى

(٤) بيضٌ صنائِعنا ، سودٌ وقائعنا نأسُو بأموالنا آثارَ أيدينا

(٥) أو ما رأيت المجْدَ ألْقى رَحْله فى آل طَلْحَةَ ثُمَّ لم يَتَحَوَّلِ

(٣)

بين الصفةَ المرادةَ من كل كنايةٍ من الكنايات الآتية :

(١) علىٌّ ندِيُّ الكَفّ . (٢) محمودٌ ناعم الأظْفار .

(٣) اعوجّ ظَهْرُ فلان . (٤) فلان يفترِش الغَبراء ، ويَلْتَحِف بالسماء .

(٥) « وَلا تُصَعِّر خَدَّكَ للناس ولا تمْشِ فى الأرْض مَرَحًا . »

(٦) قَدْ جَعَل المُبْتَغونَ الخَيْرَ فى هَرِمٍ والسَّائلونَ إلى أبوابِهِ طُرُقَا

(٧) لوت اللَّيالى كَفَّهُ على العَصا . (٨) هى بعيدةُ مَهْوى القُرطِ .

(٩) هو من حَمَلَة الأقلام .

(١٠) وصف أعرابى رجلاً فقال : « كان إذا رآنى قرَّب من حاجِبٍ حاجِباً . »

(٤)

بين الموصوف المُرادَ فى كلِّ كناية من الكنايات الآتية :

(١) قال تعالى : « وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . »

(٢) قال المرحوم حافظ إبراهيم :

صَفْحَةُ البَرْق أَوْمَضَتْ فى الغَمام ... أم شهابٌ يَشُقّ جَوْفَ الظَّلام

أم سليلُ البُخارِ طار إلى القَصـــدِ فأَعيا سَـــوابِقَ الأَوْهام

(٣) وقال المرحوم أحمد شوقى :

إن الذى ملأَ اللّغاتِ محاسِناً ... جعل الجَمال وسِرَّه فى الضَّاد

(٥)

بيِّن المقصودَ فى كل كناية من الكنايات الآتية ، وبين السببَ فى العُدول عن التّصريح إليها ، وسِرَّ بلاغتها :

(١) فأَتبعتُها أُخرى فأَضْلَلْتُ نَصْلَها ... بحيثُ يكون اللُّبُّ والرُّعبُ والحِقْد

(٢) بَنَى المجدُ بيتاً فاسْتَقَرَّتْ عِمادُه ... علينا فأَعيا الناسَ أَن يتحوَّلا

(٣) أصبح فى قَيْدِكَ السّماحةُ والمَجْـــدُ وفَضْلُ الصّلاحِ والحَسَبُ

(٦)

بين الكنايات والتَّشبيهاتِ فيما يأتى :

(١) قول حاجِبِ بْنِ زُرارة لِكسْرى :

وَرَى زَنْدُك ، وهِيبَ سُلْطانُك . إنَّ العرب أُمَّةٌ قد غَلُظَتْ أكبادُها ، واسْتَحْصَدتْ مِرَّتُها ، ومُنِعَتْ دِرَّتُها . وهى لكَ وامِقةٌ ما تألَّفْتها ، سامعةٌ ما سامَحْتَها . وهى العَلْقَمُ مرارةً ، والعسلُ حلاوةً .

(٢) قول الحارثِ البَكْرِىِّ لكسرى :

والعرب تعلم أنى أَبْعَثُ الحربَ قُدُماً ، وأحبِسُها وهى تَتَصَرَّفُ بها ، حتى إذا جاشَتْ نارُها ، وسَعَرتْ لظاها ، وكشَفَتْ عن ساقِها ، جعلتُ مَقادَهَا رُمْحِى ، وبَرْقَها سَيْفِى ، ورَعْدَها زَئيرِى .

(٧)

تكلم عن العبارة الآتية من البيان :

« أما بعدُ ؛ فإنَّ سحائبَ وعدِكَ قد بَرَقَتْ ، فليكن وَبْلُها سالماً من صَواعِقِ المَطْل »

(٨)

اشرح البيتين الآتيين ، وبين ما فيهما من كِنايات ، واشرح سرَّ بلاغتها :

إنَّا لَنَصْفَحُ عن مَجاهِلِ قومنا ونُقيمُ سالفَةَ العَدُوِّ الأصْيَدِ

ومتى نَجِدْ يوماً فسادَ عشيرةٍ نُصْلِحْ وإنْ نَرَ صالحاً لا نُفْسِدِ

(٩)

تكلم من البيان على الأبيات الآتية :

قال ابن حَمدِيس يصف سيفاً :

وأبيضَ تَحْسَبُ فيه الفِرِنْدَ يُثـــير هَبـاءً على جَـــدْوَل
إذا دُعِيَ الموتُ بالهَز منـــه أجاب بصَلْصَلةِ الجُلْجُلِ
وما سلّ للضّرب إلا أسا لَ على حدِّهِ أَدْمُعَ المَقْتَلِ

(١٠)

تكلم على ما فى البيتين الآتيين من البيان ، ثم أشرحهما :

قال المتنبي :

سَلَكتُ صُروف الدهرحتى لَقِيتُه على ظَهْرِ عَزْمٍ مُؤْيَدَاتٍ قوائِمه
وكنت إذا يَمَّمْتُ أرضاً بعيدةً سَرَيْتُ فكنت السرَّ والليلُ كاتِمُه

اختلاف الذوق فى تقدير الكناية

الكناية أساسُها البحثُ عن اللازم الذى يَتْبَعُ الشىء عادَةً ؛ ليدُلَّ على ملزومه كما تقدم . فهى إذاً تختَلِفُ باختلاف الزمَنِ والبِيئَةِ أيضاً .

فمَثَلاً : الكَرَمُ فى الزمن الماضى كان أَهمُّ مظاهره الإطعامَ .

ويلزمُ الطَّعامَ مَطْبَخ واسع ؛ كثير الوَقُود ، كثيرُ الرَّماد . فقالوا : « كثيرُ الرَّماد » وكَنوا بذلك عن شدَّة الكرم ، وكثرة الوراد . أما الكرمُ الآنَ فله مظاهر أُخرى ، قد تكون بإقامة مُؤَسَّساتِ الخيرِ ؛ من مدارسَ ومستشفياتٍ ، أو بمعونة جماعاتِ البرِّ ؛ فيُكْنَى عن الكريم بأنه عِمادُ كثيرٍ من جماعاتِ الخَيْر : « يتردَّد اسمُهُ فى دفاتر المَبرَّاتِ . »

وكذا « طويلُ النِّجادِ » كنى به عن طول القامة .

والنِّجادُ حمالةُ السيفِ ، وقلَّما نَراه اليوم ، فنلاحظُ من طوله طول القامة . فهى كناية قد مضى زمنُ دلالتها .

ومن الكنايات التى كانت تُسْتَطْرَفُ قولهم « جَبان الكلب » « مَهْزولُ الفَصيلِ » يَكْنون عن الكريم ؛ لأن الكريم يكثر قُصَّاده وزُوَّارُهُ ، فلا يَنْبَحُ كلبُهُ زائِراً ، ولا يهاجم قادماً . وكان الكريم يقدِّم القِرى لضيفانه مِنْ لبن نِياقه ، ويَذْبح منها فيطعمهم ، ويَحْرِمُ الفصيلَ لبنَ أمِّهِ ، أو يَحْرِمُهُ أمَّهُ فيجوعُ ويُهْزَلُ . وكان ذلك من علامات الكرم .

قال الشاعر :

وما يكُ فِيَّ من عيبٍ فإنِّى جبان الكَلبِ مهزولُ الفصيلِ

ولا نكادُ نحِسّ اليوم ما فى هاتين الكنايتين من مدح .

فقد رأيتَ أنَّ الكناية تَحْسُن حينما تكون الملازمةُ معروفةً ، والدلالة واضحةً .

فاليوم يمكن أن تقول : « هو يقتنى السياراتِ الفاخرةَ » تكنى عن حَظِّهِ من الثروة ، أو « هو وثيقُ الاسِم فى المعارف » تكنى عن الغِنى . أو « هو كثير التردُّدِ إلى المحاكم » تكنى عن شَغَبِهِ وكَثْرَةِ خُصوماتِهِ .

فقد رأيت أن وسائل التَّعبير من تشبيه واستعارة وكناية ، يتفاوتُ تقديرُها تبعاً لاختلاف الزَّمنِ والبيئةِ ، وأنها تتجَدَّدُ بتَجَدُّدِ العصور .

على أن من هذه الأنواع أمثلةً خالدةً ، واضحةَ الدِّلالةِ فى كل وقت ، لبنائها على شىء طبيعىّ ، لا يكاد يختلف باختلاف العصور ، ولا يتفاوَتُ إدراكه ، كما ترى فى التشبيه الآتى فى قوله تعالى :

« إنَّما مثلُ الحَياة الدُّنيا كماءٍ أنْزلناهُ من السَّماء فاخْتَلَطَ به نَباتُ الأرضِ ممَّا يأْكُل الناسُ والأنعامُ حتَّى إذَا أَخَذَت الأَرضُ زُخْرُفَهَا وازَّينَتْ وَظنَّ أَهْلُها أَنَّهُم قادِرونَ علَيها أَتاها أَمْرُنا لَيلاً أو نَهارًا فَجَعلْناَها حَصِيداً كَأَن لَمْ تَغْنَ بالْأَمْسِ . »

توليد الصـــور

(١) من طبيعةِ الماءِ أَنْ يَنْحَدِرَ من المكان العالى حتى يستَقِرَّ فى المكان المُطْمَئِن ، والسيلُ ينزِلُ على الجبال فينحدِرُ إلى سُفُوحِها . وسكان البرارى يعلمون ذلك ويحْفِرُون الآبارَ على سفوح الجبال ، أوْ فى وادٍ بين جَبَلَيْنِ . أمَّا الشاعِرُ فإنه يَرَى هذا فيتخِذُ منه صورةً للرجلِ العظيمِ الكريمِ ، ينالُ المالَ فَيُفْضِلُ به على الفقراءِ ، ويَبْقى مُعْدِمًا ، ويقول:

لا تُنْكِروا عَطَلَ الكريمِ من الغِنى فالسَّيْلُ حَرْبٌ للمكانِ العالى

فمن هذهِ الظاهرةِ الطبيعيةِ وَلَّدَ المعنى الذى أرادَهُ ؛ ليَرُدَّ على استنكارهم أن يكونَ الكريمُ المُفْضِلُ معدما .

(٢) وكذلك ترى الماءَ يُلْقى فيه الجسمُ الكثيفُ ذو الوزنِ ، فيرسُبُ ويَسْتَقِرُّ ، ويُلْقى فيه بالخفيف الوَزْنِ له ، فيطْفُو ويلعبُ به الموجُ غيرَ مستقِر . فيجعلُ البيانُ من هذا صورةً للحَقِّ يَثْبُتُ ويَسْتَقِرُّ ، وللباطلِ يُتَلاعَبُ به فلا يَسْتَقِر . وفى القرآن الكريم :

« فأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فى الْأَرْضِ ، كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ . »[1]

وانظر إلى قول الشاعر :

وإذا امرؤ مَدَحَ امْرَا لِنَوَالِهِ وأطالَ فيه فَقَدْ أرادَ هِجَاءَهُ

(١) يذهب جفاء . جَفَأَهُ السيل أى رَمَى به « سورة الرعد آية ١٧ . »

لو لم يُقَدِّرْ فيه بُعْدَ المُسْتَقَى عند الوُرودِ لَمَا أطالَ رِشَاءَهُ

تَرَاهُ قد أخَذَ من عمل الماتِحِ — الذى يَسْتَقِى من البئرِ العَمِيقَةِ فيَسْتَعِدُّ بطولِ الرِّشاءِ — صورةً للشَّاعِرِ يتقدَّمُ إلى المرءِ مادِحا لينالَ عطاءه ، فلا يُطيلُ إلّا وقد قَدَّرَ بُخْلَ الممدوحِ وإمساكَهُ المالَ ، فيستعِدُّ له بطولِ القَوْلِ ، وكَثْرَةِ الحُجَجِ ، وامتدادِ القصيدةِ .

(٣) والناسُ يعلمونَ أن لابسَ المنظارِ الأسودِ يرى الأشياءَ قاتِمَةً ، فيقولون لمن يتشاءَمُ ويرى الأُمورَ أسوأَ مما هى : « إنه لَيَرى بمِنظارِهِ القاتِمِ » أو « يُبْصِرُ من خلال نَظَّارَتِهِ السوداء . »

وهكذا تُوَلِّدُ صُوَرُ البيانِ مما نَرَى ونلاحِظ . وبَعْض هذهِ الصور قد يكونُ قريباً سَهْلًا ، يستعمِلُه الناسُ كثيرًا ، فيتردَّدُ فى القولِ ويُبْتَذَلُ ، ولا تبقى له فى البيان منزِلَتُه الأولى ، التى كانَتْ له قبل أن يُبْتَذَل ، كما ترى فى تشبيه الطَّلْعَةِ الجميلةِ بالقَمَرِ أو الشَّمس ، والكريم بالبَحْرِ ، وثقيل الرُّوح بالجَبَلِ .

على أن هذهِ الصُّوَرَ القريبةَ المُبْتَذَلَةَ قد يتناوَلُها البليغُ القادرُ ، فيتصَرَّفُ فيها تَصَرُّفًا يجعَلُها جديدةً طريفةً ، كما قال الشاعر :

دَنَوْتَ تَوَاضُعًا وعَلَوْتَ مجداً فشـــأناكَ انحدارٌ وارتفاعُ

كذاكَ الشمسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَامَى ويَدْنُو الضوءُ منها والشُّعاعُ

فقد رَأَى الشَّمْسَ تبعد فلا يسامِيها أحدٌ ، وتقرُب حتى ينتفعَ بها

كُلُّ أحدٍ ، فجعل منها صورة للدوح إذْ سَمَا على الناسِ مَجْداً ، وقرُبَ منهم تواضُعاً مِنْهُ وإفادةً لهم ، وكان تشْبِيهُ ذِى المنزلةِ بالشمسِ مُبْتَذلاً مَالُوفاً ، فلما فَصلَ الشاعرُ هـذا التفصيلَ فى وجه المشابهةِ جَعَلَه جديداً طريفاً .

وكذلك قوله :

يا مَن حَكَتْ شَمْسَ النهارِ بِحُسْنِها ... وبِبُعْدِ مَنْزِلِها وبَهْجَةِ نُورِها
هلا عَدَلْتِ كَعَدْلِهَا إذْ صَيَّرَتْ ... للناسِ غَيْبَتَها بِقَدْرِ حُضورِها

جاءت الطرافةُ من أَنَّه لما شَبَّهَها بالشمس فى هذه الصفاتِ كُلِّها ، سَأَلها أن تَعْدِلَ كما تَعْدِلُ الشمسُ .

وترى أَمثِلةً لهذا فى قول المتنبى :

كالبدرِ من حيثُ التَفَتَّ رأيتَهُ ... يُهْدِى إلَى عَيْنَيْكَ نوراً ثاقِبَا
كالبحرِ يَقْذِفُ للقريبِ جواهراً ... جُوداً وَيَبْعَثُ للبعيدِ سحائبا
كالشمسِ فِى كَبِدِ السماء وضَوْءُها ... يَغْشَى البلادَ مشارقاً ومغاربا

والخلاصة — أن صور البيان يُوَلِّدُها البلغاء مما بَيْنَ أيديهم من الأشياء التى يَرَوْنها ويرقبُونها ، وأَنَّ من هذهِ الصورِ ما يشيعُ ويُتَدَاوَلُ حتى يُبْتَذَلَ وتَنْزِلَ فى البيان قيمتُه ، وأن من الفصحاء من يَتَنَاول هذا الشائعَ المُبْتَذلَ ، فيتصرفُ فيهِ تَصَرُّفاً ينفى عنه الابتذال ، ويُحَقِّقُ له الجِدة والطَّرافةَ .

تجـدُّد صور البيـان

علِمْتَ من قبل كَيْفَ تُوَلَّدُ صورُ البيانِ ، وأنها تُؤخذ مما نَرَى ونُلاحِظُ ، ومما نَجِدُ من المُشابَهة أو المُلازَمَة بين الأشيـاء بعضها وبعض .

وكذلك علمتَ أن الأذواقَ تَخْتَلِفُ فى تقديرِ صُوَرِ البيانِ تَبَعاً لِاختلافِ الأزمان .

وهذا حَرِيٌّ بأن يدُلَّنـا على أن صُوَرَ البيانِ تَتَجَدَّدُ ، فَتَحْدُثُ صُوَرٌ جديدةٌ وتَذْهَبُ صُوَرٌ قديمةٌ ، أو يَقِلُّ استعمالُها .

كان العربُ يَدُلُّون على الكَرَمِ بكَثْرَةِ الرَّمادِ ، وجُبْنِ الكلبِ ، وهُزَالِ الفصيلِ ، ويقولون فيمن يُريدون مَدْحه بالكرمِ : « إنه كثيرُ الرَّماد ، أوجبانُ الكلب ، أو مهزول الفصيل . » وقد ذَهَبَتْ هذهِ الصورُ البيانيةُ ، ولم تَعُدِ الأذواقُ تُسيغُ استعمالَها فى تلك المواضِعِ ، ولم تَبْقَ دلالتُها على هذهِ المعانى إلا نَقْلاً وحِفْظاً وتَقْليداً .

وكان العربُ يَضْرِبون المثلَ فى نَمِّ الحديثِ بالترابِ ؛ يقولون : « هو أَنَمُّ من التراب » لأن الترابَ يَسْتَبْقِى آثارَ السائرين ، والعَرَبُ يُجيدون معرفةَ الآثارِ ، والاستدلالَ بها على أصحابِها ؛ فلذلك قالوا : « أَنَمُّ من التُرَاب . » وقالوا : « هو يَنِمُّ كما يَنِمُّ التُرابُ . » أى

تَحْسبه صامتاً لا يُخْبِرُ عنك ، وهو يَشِى بك ، ويُخْبِرُ النـاسَ بمسلَـكِكَ وطريقِكَ .

أما الآن فإن جمهورَ الناسِ لا يعرفون الآثارَ ، ولا يَهْتَدون بها ، فلا يَرَوْن فى التراب نَمًّا .

وكذلك ضَرَبوا المثلَ فى الذِّلةِ بالوَتِدِ ، وقالوا : « هو أذلُّ من وَتِدٍ » « وهو يَحْتَمِلُ الصَّغارَ راضياً كالوَتِد » . وَلَيْسَ بالمثل الظاهر عندَنا اليوم فى الذِّلَّةِ واحتمال المهانة .

وكذلكَ كانوا يقولون : «شِمْتُ فى كلامهِ بريقَ السيف» وربما كان أقربَ إلَيْنا اليوم فى الدلالَةِ على الوعيدِ ، وتصويرِ قُوَّةِ التهديدِ — أَنْ تقول: « أَسْمَعَنا فى قولِهِ دَوِىَّ المدافِعِ ، أو أزيزَ الطائراتِ » فهى اليوم أظهر آلاتِ الحربِ ، وأقوى عُدَّةِ التهديدِ .

وكانوا يقولون فى طولِ الطريقِ : « قَطَعَ ما بَيْنَ غانة وفَرْغانة » وغانةُ بَلَدٌ فى إفريقية كان أبعدَ محطات التُّجَّارِ غَرْباً ، وفَرْغانة بلدٌ آخَرُ فى بلادِ التُّرْكِ كانَ أبعدَ المَحَطَّاتِ شرقاً . ولم تبق لَهُما هذه الخاصةُ الآن ، ولا لهما من الشهرةِ فى الأَسفار ما يجعلُهُما مَضْرِبَ المثلِ فى البعد .

على أنا إذا تَتَبَّعنا صُوَرَ البيانِ الجديدةَ ؛ من تشبيهٍ ، واستعارةٍ ، وكنايَة — وجدناها اليومَ قليلة ، أو على الأقل وجَدْنا الرائع المُعْجِبَ منها قليلاً . بينما تجد من هذهِ الصورِ ما شِئْت فى كلامِ المُتقدمين : شعرهم

ونثرهم . وقد رأيت من قبلُ أنهم استحدثوا من الجُمَلِ وأجزائهِ وعمله كثيراً من صورِ البيان . وكذلك استمدوا من السَّهْم صُوَرًا متعددة . قالوا :

(١) « يَمْضِي فى رأيه مُضِيَّ السهم . »

(٢) « لا يعود حتى يَرْجعَ السهمُ إلى فُوقِهِ . »

(٣) « رمى بآخرِ سَهْمٍ فى كِنانَتِهِ . »

(٤) « إن أميرَ المؤمنين نثر كنانتَهُ ، فوجدنى أَصْلَبَها عُوداً ، فرماكم بى . »

(٥) « قبلَ الرِّمَاءِ تُمْلَأُ الكِنَانُ . »

(٦) « كالقوس تُصْمِى الرَّمايا وهى مِرْنانُ . »

(٧) فإنْ كُنْتُ لاأَرمى وتَرْمِى كِنانتى ... تُصِبْ جانحاتُ النَّبْلِ كَفِّى ومِعْصَمِى

(٨) فَصِرْتُ إذَا أَصَابَتْنِى سِهَامٌ ... تكسرتِ النِّصالُ على النِّصالِ

(٩) وكُنَّا كالسهامِ فَإن أصَابتْ ... مَرَامِيَهَا فرامِيهـــا أصابا

(١٠) وَيْلاهُ إنْ نَظَرتْ وَإنْ هِىَ أَعْرَضَتْ ... وقعُ السِّهـــامِ ونَزْعُهُنَّ أليمُ

هذا قليلٌ من كثيرٍ من صُوَرِ البيان ، التى استمدَّها المتقدِّمُون من السَّهمِ وخواصه وعمله ، ولا تَرى الأُدباءَ فى عَصْرِنا قد استحدثوا مثلَ هَذَا ؛ مما جَدَّ من أدوات القِتَال بعدَ السهم ، وما أفظعها وأهْوَلَها وأنْكَى أثَرَهَا ! !

وقال المتقدمُون : « أخذ بزمام الأمر . وأخذ بِدَفَّتِه » . فى معنى

قَادَهُ وامْتَلَكَ تَوْجيهَهُ وتَصْرِيفَه . أخذوا الأَول من الحيوان يُقاد بالزِّمام ، والثانِيَ من السفينة تُوَجَّهُ بالدَّفة .

واليوم نرى من السُّفُنِ أنْوَاعًا ، ونرى القُطُرَ والسياراتِ والطائراتِ ، وكلها تُسَيَّرُ وتُقاد ، ولـكنَّ الأُدباءَ لم يَسْتَعيروا من صُوَرها ما اسْتَعارَ المتقدمون من السفينةِ أو الجمل ، والواجب أن يكون ما تَحْتَ سَمْعِنا وبَصَرِنا مَصْدَراً لتشبيهاتنا واستعاراتِنا وكنَايَاتِنا ، كقول حافظ إبراهيم :

كَأَن فؤادى إِبْرَة قد تَمَغْطَسَتْ بِحُبِّكِ أَنَّى حُرِّفَتْ عَنْكِ تَعْطِفُ

وإحداثُ صُوَرِ البيانِ يزيدُ اللغةَ سَعَةً وقُدْرة على التعبيرِ والتصويرِ ، وَيَدُلُّ على نشاطِ العقولِ ، وحركةِ الفِـكْر ، فى معرفةِ خَصَائِص الأشْياء ، ودقائقِ صِفَاتِها ، ومقايستها بعضها إلى بَعْض .

ومن المفيدِ للناشئِ أَنْ يَتَأَمَّلَ صُوَرَ الأَشياء وخَصَائِصَها ، والصِّلاتِ بينَها ، وأَلَّا يُحْجِمَ عن التجْدِيدِ فى استعمال التَّشْبِيه ، أَو الاستعارةِ ، أَو الكنايةِ ؛ ليُبَيِّنَ المعنى الذى يُرِيد ، ويُحَقِّقَ الغرضَ الذى يَرْمى إليه .

تَرَاكُمُ صُوَرِ الْبَيَانِ

عَلِمتَ أنْ للتعبيرِ عن المعانى سُبُلًا مُخْتَلِفَة ، وأن المعنى الواحدَ يمكن أنْ يُدَلَّ عَلَيْهِ بعباراتٍ متعددة ؛ فيُعَبَّرَ عنه بسبيلِ التشبيهِ ، وبسبيلِ الاستعارةِ ، وبسبيلِ الكنايَةِ . وأنَّ كلَّ واحدٍ من هذه إذا أُحْسِن استعمالُه ، وأُجيد اختيارُه ، وَوُضِعَ أَلْيَقَ المواضع به — كان أَبْلَغَ وأَتَمَّ تصويرًا للمعنى ، وأدلَّ على ما يريد القائل . وقد بَيَّنَّا هذا من قَبْلُ . وضَرَبْنا له الأمثلة فى كل باب .

والآن نريد أن نُبَيِّنَ أَنَّ هذه الوسائلَ البيانيةَ ينبغى أن تُسْتَعمل فى الكلام بِقَدَرٍ ، وأنه إذا اسْتُكْثِرَ منها كَثْرَةً تُجَاوِزُ الْحَدَّ اللائقَ بالمقامِ — عادَتْ سبباً للخفاءِ لا للبيان ، وكَدَّت العقلَ فى فهم المعْنى وتصوُّرِه .

انظر قول الشاعر :

فأمْطَرَتْ لُؤْلُؤًا من نَرْجِسٍ وَسَقَتْ وَرْدًا وعضَّتْ على العُنَّابِ بالبَرَدِ

فإجمالُ ما يقولُ : بَكَتْ وعضَّتْ أنامِلَها . وعَبَّرَ عن البكاء بالإمطارِ ، وعن الدَّمْعِ باللُؤْلؤ ، وعن العينِ بالنَّرْجِس ، وعن تَحَدُّرِ الدَّمْع على الخَدِّ بالسُقْيا ، وعن الخَدِّ بالورد ، وعن الأنامل بالعُنَّاب ، وعن الأسنانِ بالبَرَد ، وأكثر من الاستعاراتِ المتتابعةِ فى البيتِ الواحد . وقد أفادَتْ كل استعارة فى تصويرِ جُزْءٍ من المعنى الذى أرَادَه

الشاعر. فَجَمَّلَ الدَّمع إذ جَعله لُؤْلُؤًا ، والعين حينَ شَبَّهَا بالنَّرْجس ، والخَد إذْ شَبَّهَهُ بالوَرْد ، والانامل إذْ جَعَلَها عُنَّابًا ، وَالأسْنان حينَ شَبَّهَها بالبَرَد .

ولكنَّ تتابعَ الاستعاراتِ وكَثْرَتَها استلزمت كَدَّ العقلِ شيئًا ما ، حتى يَتَمَثَّلَ المعنى ؛ فقد تجاوزت الاستعاراتُ فى هذا البيتِ حَدَّها ، وكان تراكُمُها دَلِيلاً عَلَى عَنَاء القَائل ، وتَكَلُّفِه فى حَشْدِها ، وسبباً لجهْد السامِع فى تصويرها .

قال : أمطرت أى بَكَتْ بُكَاءً كثيرًا . ومَهْمَا يكن البكاءُ كثيرًا ؛ فإن التعبيرَ عنه بالإمطارِ يُعْطِيه صُورَةً من الكثرةِ متجاوزة .

وقال : « سَقَت ورداً . » وعَبَّرَ بهذا عن تَحَدُّرِ الدَّمْع على الخد ، وسُقْيا الورد ومثلِهِ من النبات يكونُ بجريان الماء على الأرض ، ولم يرد أنْ يجعلَ لِوَجْهِها من الأرض أىَّ شبه ، فاستعارةُ « السُّقْيا » هنا لم تُصب مكانها ، ولكنه لما جعل البكاء مطراً صَوَّرَهُ يجرى فى أصول النبات ليسقيها .

فتراكُمُ الاستعارات لم يُوَضِّح المعنى ، ودَعَا الشاعرَ إلى استعارتين لم يُصِب بهما أليق مكانهما .

ونظيرُ هذا قولُ الشاعر :

تَفْتَرُّ عن لُؤْلؤ رَطْبٍ وعَنْ بَرَدٍ وعَنْ أَقَاحٍ وعَنْ طَلٍّ وعن حَبَب

وقول أبى القاسم الزّاهى :

سَفَرْنَ بُدوراً وانْتَقَبْنَ أهِلَّةً ومِسْن غصوناً والْتَفَتْن جآذرا

فترى فيه تَتَابُعَ التشبيهِ وكَثْرَتَهُ ، كما رأيتَ فى البيتِ الأولِ تراكُمَ الاستعاراتِ .

ومن هذا قول الآخر :

بَدَتْ قَمَراً ومالت خُوطَ بانٍ وفَاحَتْ عَنْبَرًا وَرَنَتْ غَزَالا

وسبيلُ البيانِ الصحيحِ أَلَّا يُقْصَدَ إلى هـذه الوسائلِ لِذَاتِها ، ولا لتَجْمِيل القولِ بها ؛ بل يَجِبُ أَنْ يُقْصَدَ إليها لتصوير المَعْنى وتوضيحِه وتَجْمِيلِهِ ، وتحقيقِ ما يريدُ القائلُ منه .

وقد يجىء فى القَوْل تشبيهٌ واحدٌ ، ويُسْتَكْثَرُ فيه من التفصيلِ ، حتى كَأَنَّهُ تَشْبِيهَات تراكَمَت ، فلا تُكْسِبُ المعنى ما نُرِيد من توضيحِهِ وتقْريبه ، كما ترى فى قول بعض الأدباء[1] :

« وكان حُبِّى إيَّاها حَرِيقاً مِنَ الحُب . » فمثل لعينيك جِسْماً تَنَاول جِلْدَهُ مَسٌّ من لَهَبٍ ، فَتَسَلَّعَ[2] هذا الجِلْدُ هُنَا وهُنَاك من سَلْخِ النار ، وظهر فيه من آثارِ الحريقِ لهيبٌ يابسٌ أحمر ، كأنه عُروقٌ من الجَمْرِ انْتَشَرت فى هذا الجسم

إنَّكَ إنْ تَمَثَّلْت هذا الوصف ثم نَقَلْته إلى الدَّم — كان هو حريقَ ذلكَ الحب فى دَمِى .

---

(١) من وحى القلم للمرحوم الرافعى ص ١٠٠ ج ١

(٢) تسلع : أى تشقق وتسلخ

البـــديع

مقـــدمة

(١) كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مع صديقه أبي بكر فى طريقهما إلى المدينة مهاجِرَين، فَلقِيَهُما أعرابيٌّ يَعْرِف أبا بكر ولا يَعْرِف الرسول — ورأى أبو بكر من الحِيطَةِ لرسول الله ألا يخبرَ الأعرابيَّ عنه — فلما سأله: مَنْ معك؟ قال: «هاد يهدِينى السبيل.» فصَدَق أبو بكر، وبَلَغ ما أراد بِحُسن تَصَرُّفِهِ فى القول.

(٢) وقيل لعبد الله بنِ المقفع: ما أحسنُ السجعِ؟ قال: ما خفَّ على السمع. قيل له: مثلُ ماذا؟ قال: مثلُ هذا.

(٣) وحاول رجلٌ أن يُكلِّفَ صاحبَه الترفعَ وعلوَّ الهمة، فلما أبى، قال: «دعُوه يأكل عيشه بجُبنه.»

فأنت ترى فى الأمثلة السابقة تصرفاً فى القول يَزيده حسناً، ويُحَرِّك من انتباه السامع له، وارتياحه إليه، ويجعله أقربَ إلى الحفظ، وأعْلَقَ بالقلب.

وإنك لتَشْعُر حين تقرأ قصيدةً لشاعر مطبوع، أو رسالة لكاتب مُجيد، أن بعضَ أبياتِ القصيدة، وبعضَ جُمَل الرِّسالة، ممتازٌ بحسنه

ولطفه ، فإذا رجعت إلى نفسك تستوحيها سرَّ هذا الجمال ، وإلى ذوقك تَتَفَقَّدُ به مواقعَ الحسن ، وجدتَ ذلك فى لفظٍ حَسُنَ موقِعُه ، وفى معنًى شريفٍ يَزيدُ القولَ حُسناً وبَهاءً .

وكانَ هذا الجَمالُ يقع للشعراء والكتاب فى عصورِ زَهْوِ اللغةِ العربيةِ بغير تكلُّف ولا مشقة ، يجىء ثمرة الفِطرة ، وطَوْعَ السَّجيَّةِ ، فيُفاضِلُ به الأدباءُ المتقدمُون بَيْنَ الشعراء ، ويوازِنون به بيْنَ الكُتَّاب ، ويجعلون الذوق الذى فُطِروا عليه ، والسَّجيَّة التى تمكَّنَتْ فى نفوسهم — حَكَماً عَدْلاً ، وشاهداً مُبيناً .

فلما جاء العصر العباسىُّ وأخذ شعراؤه وكُتَّابُه بِقِسْطٍ من الحضارات المختلفة ، والثقافات المتنوِّعة ، وفَطِنُوا إلى ما فى القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والشعر القديم ، من وجوه البلاغة — رَأَوْا أن شيئاً كثيراً من الجَمال الفنى ، يأتى إلى الكلام من طريق تَشَكُّلِ اللفظِ أو المعنى بوجوهٍ خاصّة ، فأكثروا من العناية بها ، وسَمَّوْا هذه الوجوهَ والصُّوَرَ « بديعاً » . وفشَتْ هذه الطريقةُ فى شعر بَشَّارٍ وأبى نُوَاس ومسلِمِ بنِ الوليد وأشياعِهم .

وأولُ من جمعَ جملة صالحة من أنواع البديع وسَمَّاها بهذا الاسم عبدُ اللهِ بنُ المُعتَزِّ العباسى ، وكان ذلك سنةَ أربعٍ وسبعين ومائتين ، عاصَرَهُ قُدَامَةُ بنُ جعفرٍ فزاد فيها ، واقتدى الناس بهما فى التأليف ،

وزادوا فى الأنواع كثيرًا ، ونَظَمُوا فيها قصائدَ تُعْرَف بالبديعيَّات ، وصار البديعُ فنًّا يُعْنَى بدراسته . وعَرَّفُوه بأنه :

« عِلْمٌ يُعْرَفُ به وُجوه تَحْسِينِ الكلامِ بَعْدَ رِعايةِ مُطابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى الحال مَعَ وُضوحِ دَلالَتِهِ على المعنى المُرادِ . »

المحسّنات البديعية نوعان

وَقسَّموا وجوه تحسين الكلام قسمَين : مُحَسِّنات لفظية ، ومحسنات معنويَّة ، وذكروا فى كل قسم ما استَبان لهم من أنواعه .

وسنذكر بعض هذه الأنواع فيما يأتى :

١ — المحسنات اللفظية

الجِنَاس

مما يَزيد الكلام فى لفظه حُسْنًا ، أن تَتَشابه الكلمتان فى النُّطقِ ، وتختلفا فى المعنى ؛ كقول أبى تمَّام فى المدح :

ما مات من كَرَمِ الزَّمان فإنه يَحْيا لدى يحيى بنِ عبدِ الله

فكلمة (يحيا) الأولى فعلٌ من الحياة ، والثانيةُ اسمُ الممدوح .

ومن ذلك قوله تعالى :

« وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ . »

فلفظ (ساعة) الأول قُصِد به يومُ القيامة ، والثانى المدةُ من الزمان .

وأنت ترى فى الأمثلة السابقةِ أن اللفظَين المتجانسَين قد اتفقا فى أربعة أمور ، وهى :

(١) أنواع الحروف (٢) أعدادها (٣) الهيئة الحاصلة من الحركاتِ والسكنات (٤) ترتيب الحروف[1]

ويُسَمَّى هذا النوعُ « جِناساً تامًّا »

وإذا اختلف اللفظان فى واحد من الأربعة سُمِّىَ « جِناساً غيرَ تامٍّ » .

(١) فمن اختلاف أنواع الحروف — ويجب ألَّا يكون بأكثرَ من حرف — قوله صلى الله عليه وسلم : « اَلْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِى نَوَاصِيهَا اَلْخَيْرُ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ » فَبَيْنَ لَفْظَى الخيلِ ، والخيرِ ، اختلافٌ فى حرف واحد .

ونحو قوله تعالى :

« ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ . »

فقد وقع الاختلافُ بينَ « تَفْرَحون » ، و « تَمْرحون » بحرف واحد .

ونحو قول الشاعر :

فإن حَلُّوا فليس لهم مَقَرٌّ وإن رَحَلوا فليس لهم مَفَرٌّ

(١) العبرة فى المماثلة بالنطق لا بالكتابة .

(٢) ومن اختلاف أعدادها قَوْلُك فيمن بَنَى منزلاً بعيداً مِن الأبنية : « هٰذا بناءٌ ناءٍ . »

(٣) ومن اختلاف الهيئة قول الشاعر :

الْجَدُّ فى الْجِدِّ والْحِرمان فى الكسلِ فانْصَبْ تُصِبْ عن قريب غاية الامَلِ

(٤) ومن اختلاف ترتيب الحروف قولهُم فى وَصْف الشُّجاع :

« فى حُسامِهِ فَتْحٌ لأوليائه ، وحَتْفٌ لأعدائه . »

فقد اختلف ترتيبُ الحروف فى كلمتى : « فَتح » و « حَتْف » .

ومن هذا قول الأحنف :

حُسامُك فيه للأحباب فَتْحٌ ورُمْحُكَ فيه للأعداء حَتْفُ

ومنه قول أبى تمَّام :

بِيضُ الصَّفائِحِ لا سُودُ الصَّحائِفِ فى مُتُونِهِنَّ جَلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

أراد أَنَّ السيوف هى عُدَّةُ الفاتحين ، لا ما يَسْطُرون من الرسائل .

فبَيْنَ كلمتَىْ : « الصفائح » و « الصحائف » اختلافٌ فى ترتيب الأحْرُف .

وبعد ، فإن الجناس ، وبخاصة التامُّ ، مما لا يَتَّفِق للبليغ إلا على نُدُورٍ وقلة . فهو لا يَقَعُ موقعَه من الحُسْن حتَّى يَكُونَ المعنى هو الذى أستدعاه وساقه ، وحتى تكون كلمتُه مما لا يبتغى الكاتب منها بَدَلاً ، ولا يجدُ عنها حِوَلاً . فأمَّا أن يَتَكَلَّفَهُ الكاتب ، ويَسْتَكْرِهَهُ أن ينزل من قوله مَنزِلا لا يُوافقه ، ولا يَطيبُ فيه بقاؤه — فإنه لا يُعَدُّ من

أسبابِ الحُسْن ، ولقد يكون من أسباب ضعْفِ القَول وانحطاطه ، وتَعَرُّضِ قائله للسُّخْرِيَة والاستهزاء .

الخلاصة : الجناس : تَشَابهُ اللَّفْظَيْنِ فى النطق مع اخْتِلافِهما فى المعْنى .

وهو قسمان :

(ا) تامٌّ — وهو ما اتَّفَقَ فيه اللفظان المُتجانِسان فى أربعة أمورٍ : نوع الحروف ، وعددها ، وهيئاتها ، وترتيبها .

(ب) غيرُ تام — وهو ما اختلف فيه اللفظان فى واحد أو أكثر من الأربعة السابقة .

تمرينـــات

(١)

(١) بَيِّن الجناسَ ونوعَه فى كل مثال من الأمثلة الآتية :

يا سيداً حاز رِقِّى بِما حبانِى وأَوْلَى
أحسنتَ بِرًّا فقُل لِى أحسنتُ فى الشكر أَوْ لَا

(٢) وقال الشاب الظريف :

أسرِع وسِر طالِبَ المعالِى بِكلِّ وادٍ وكلِّ مَهْمَه
وإن لَحا عاذِل جهول فقُلْ له يا عَذُولُ مَهْ مَهْ

(٣) وقال أيضاً :

أراكَ فيمتلي قلبي سروراً ... وأخشى أن تشطَّ بك الديارُ
فجُرْ واهْجُرْ وصُدَّ ولا تَصِلْني ... رَضِيتُ بأن تجُورَ وأنتَ جارُ

(٤) وقال آخر :

إذا أعْطَشَتْك أكُفُّ اللئامِ ... كَفَتْكَ القناعة شِبْعاً وريَّا
فكُنْ رَجُلاً رِجْلُه فى الثَّرَى ... وهامَة هِمتِـــهِ فى الثرَيَّا

(٥) وقال كعبُ بنُ زُهَير :

ولقد علِمتِ وأنتِ خَيرُ عَلِيمةٍ ... ألاَّ يُقرِّبَنى الهَوَى لِهَوانِ

(٦) وقال البهاء زهير :

أشْكُو وأشكر فِعْـــله ... فاعْجَبْ لِشاكٍ منه شاكر
طَرْفى وَطَرْف النَّجم فِيـــهِ كِلاهما ساهٍ وســـاهِر

(٧) وقال حسَّان بنُ ثابت :

وكُنَّا متى يَغْزُ النبيُّ قَبِيلةً ... نصِلْ جانبيه بِالقَنا والقَنابلِ

(٨) وقال النَّابِغَة :

فيا لَكَ مِن حَزْمٍ وعَزْمٍ طواهما ... جَدِيدُ الرَّدَى بَيْن الصَّفا والصَّفائِح

(٩) وقال أبو تمّام :

يَمُدُّون من أيدٍ عواصٍ عواصِمٍ تَصُول بِأسيافٍ قواضٍ قواضِب

(١٠) وقال آخر :

عذِيرِيَ مِن دهرٍ مُوارٍ مُوارِبٍ له حسناتٌ كُلُّهُنَّ ذنوب

(١١) يقولون : فلانٌ حامٍ حامِل لأعباء الأمور ؛ وكافٍ كافِلٌ لمصالِح الجُمهور

(١٢) وقال المعرِّى :

لم تَلْقَ غيرَكَ إنساناً يُلاذُ به فلا برِحْتَ لِعينِ الدهرِ إنسانا

(١٣) وقال آخر :

إنَّ البكاء هو الشِّفا ءُ مِن الجَوَى بين الجَوانح

(١٤) وقال الشريف الرَّضِى :

لا يُذكَر الرمْلُ إلا حَنَّ مُغْتَرِبٌ له إلى الرَّمْلِ أوطانٌ وأوطارُ

(١٥) وقال آخر يَرْثِى ابنَه :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيحيا فلم يَكُن إلى رَدِّ أمر الله فيه سبيلُ

(١٦) وقال تعالى :

« والْتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذ المَسَاق »

(١٧) وقال جَميلُ بنُ مَعْمَر :

خليليَّ إن قالت بُثَيْنَةُ ما له أتانا بلا وَعْدٍ فقولا لها ، لها
أتى وهو مشغولٌ لِعُظْمِ الذي بهِ ومَن بات طول الليل يَرْعى النُّها ، سَها
بثينة تزْري بالغزالة في الضحى إذا بَرَزَتْ لم تُبْقِ يوماً بها ، بَها

(١٨) وقال أبو فِراس :

من بحـــر جودِك أغترِف وبفضل عِلْمِك أعْـــتَرِف

(١٩) وقال آخر :

وكم سبقتْ مِنـه إليَّ معارِفٌ ثنائي على تلك المعارِفِ وَارِفُ

(٢٠) وقال أحدُ الأدباء : خُلْفُ الوَعْدِ ، خُلُقُ الوَغْدِ .

(٢)

مثِّلْ لكلٍّ من الجِناس التامِّ والناقصِ بأمثلة من إنشائك .

(٣)

استعمِلْ كلَّ كلمتين مما يأتي في مثال تُناسِبُ فيه بينهما، وبيِّن نوع الجنـــاس :

ا { ١ — أسا ، بمعنى داوى .
٢ — أسًى ، بمعنى حُزْن .

ب { ١ — مفَرّ .
٢ — مَقَرّ .

حـ { ١ — ألم .
٢ — أمَل .

ء { ١ — زاهٍ .
٢ — زاهِر .

هـ { ١ — عِبرة .
٢ — عَبْرة .

و { ١ — مارَسْتُ ، بمعنى زاولت .
٢ — مارَسَتْ ، بمعنى لم ترسُ .

ب — المحسِّنات المعنوية

١ — التَّورِيَة

قد يَذكرُ المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان ؛ أحدهما قريب ، ودلالة اللفظ عليه ظاهرة ، والآخر بعيدٌ ودلالة اللفظ عليه خفية ، فيتوهم السامع أنه يريد المعنى القريبَ ، وهو إنما يريد المعنى البعيدَ بقرينة تُشير إليه ولا تُظهره ، وتَسْتُره عن غير المتيقِّظ الفَطِن .

كقول أبى بكر رضى الله عنه حين سُئل عن النبى صلى الله عليه وسلم وهما مهاجران إلى المدينة : « هادٍ يَهْدِينى . » فظاهرُ كلامه أنه هادٍ يُرْشِده إلى طريقه فى السَّفر ، وهو يريد أنه يَهديه إلى الإسلام ، ويُرْشِده إلى عبادة الله وحدَه .

ومن ذلك قول أبى الطيب المتنبى :

بِرَغْم شَبِيبٍ فارق السيفُ كفَّه وكانا على العِلاَّت يصطحبان

كأنَّ رقابَ الناس قالت لسيفه رَفِيقُك قَيْسِيٌّ وأنت يَمانى

يريد أن كفَّ شبيب وسيفَه متنافران ، لا يجتمعان ، لأن شبيباً كان قَيْسِيًّا ، والسيف يقَال له «يمانى» ، فورَّى به عن الرجل المنسوب إلى اليمن ، ومعلومٌ ما بين قيس واليمن من التنافر . فظاهر قوله « يمانى » أنه رجل منسوب إلى اليمن ، ومراده البعيد الدلالة على السيف ؛ لأن كلمة يمانى من أسمائه .

وقال بدرُ الدين الذهبى :

الرَّوْضُ أحسنُ ما رأيـــتُ إذا تكاثرت الهموم
تَحْنو علىَّ غصـــونه ويَرِقُّ لى فيـه النسيم

ففى كل من كلمتى : « تحنو ، ويرق » تورية لطيفة ، فظاهر معناهما العطف والشفقة ، والبعيد المراد ، ميل الأغصان ، ولطافة النسيم .

ولجمال الدين بن نباتة :

بروحى جِيرة أبقَوا دموعى وقد رحلوا بقلبى واصْطِبارى
كأنَّا للمجاوَرَة اقْتَسَمْنَا فقلبى جارهُم والدمعُ جارى

فظاهر قوله : (جارى) ، أنه من المجاورة ، والمعنى البعيد المراد ، جريان الدمع وانسكابه .

فهذا نوع من الكلام ، جاءه الحسن من طريق معناه ؛ لأن له معنى ظاهرًا يدركه الإنسان لأولِ وَهْلةٍ ، ومعنًى خفيًّا لا يدركه إلا الفطِنُ الذكى .

الخلاصة — التَّوْرية : أن يُذْكَر لفظٌ له معنيان ، أحدهما قريبٌ غيرُ مرادٍ ، والثانى بعيدٌ هو المراد ، وَيُدَلُّ عليه بقرينة يَغْلِبُ أن تكون خَفِيَّةً لا يدركها إلا الفَطِنُ .

تمرينـــات

(١)

فى الأمثلة الآتية توْرية ، فما موضعها ؟ وما المعنى القريب والبعيد فى كل مثال ؟

(١) قال سراجَ الدين الورَّاق :

رَأَيتُ قُطوفَ عَفْوِك دانِياتٍ ... فنحن على الْمَدَى نَجْنى ونَجْنِي

وكم بات المُسِيء قَرِيرَ عَيْنٍ ... وسيفك إن حَلُمت قَرِيرُ جَفْنِ

(٢) وقال أيضاً :

عَذَّبْتَ طَرْفِى بِالسُّهَادِ فَلَيْلُه ... قَدْمات عَنْهُ ـ تعيش أنت ـ صَبَاحُهُ

وَألحَّ سائِلُ أَدْمُعِى فَحَرَمْتَنِي ... ولكمْ أَضَرَّ بِسائِلٍ إلحاحُـــه

(٣) وقال الجزارُ :

وما بِي سوى عينٍ نظرتُ لحُسنِها وذاكَ لجهلِي بِالعيون وغِـرَّتِى
وقالوا بِهِ فى الحبِّ عينٌ ونظرة لقدصدقوا ، عينُ الحبيبِ ونظرتى

(٤) ومن لطائفه أيضاً قوله :

أنت طَوَّقْتَنِي صنيعاً وأسْمَعْـتُكَ شُكرًا كلاهما ما يَضِيع
فإذا ما شَجاكَ سَجْعِى فإنِّى أنَا ذاكَ المُطَوَّقُ المَسْمُوعُ

(٥) وقال ابن النقيب :

أقول وقد شَنُّوا إلى الحربِ غارةً دَعُونى ، فإنى آكُلُ الخبز بالجُبْن

(٦) وقال جمال الدين بن نُباتة يُهَنِّئُ بعيد الأضْحى :

تَهَنَّأْ بعيد النَّحْرِ وَابْقَ مُمَتَّعاً بأمثاله سامِى العُلا نَافذَ الأمرِ
تُقَلِّدُنا فِيهِ قلائِدَ أنْعُمٍ وأحْسَنُ ما تبدو القلائِدُ فى النَّحْرِ

(٧) وقال صلاح الدين الصّفدى :

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فإنَّ قَدْ رَكَ قَدْ علَا عِندِى وَعَزَّا
مات السُّلُوُّ — تعِيشُ أنـــتَ — أما رَأَيْتَ الصبرَ عزَّى ؟

(٨) وقال أيضاً :

أقول وحَرُّ الرملِ قد زاد وَقْدُه ومالِى إلى شَمِّ النسيمِ سَبيلُ
أظنُّ نسيمَ الجَوِّ قد مات وانْقَضَى فَمَهْدِى بِهِ فى الشامِ وهو عَلِيلُ

(٩) وقال أيضاً فى الغزل :

بِأُسْيَافِ الجفون قَتَلْتِ نفساً ... مُبَرَّأَةً عن الشكوى زكيّه
فَما أقْوَى جُفُونَكِ وهى مَرْضى ... وأَقْدَرَهَا على قَتْلِ البَرِيَّه

(١٠) وقال أيضاً :

يا قَلْبُ صبراً على الفِراقِ ولو ... رُوِّعْتَ مِمن تُحِبُّ بالبَيْنِ
وأنتَ يا دمعُ إن أبَحْتَ بِما ... تُخْفيهِ وجْداً سَقَطْتَ مِن عينِي

(١١) وقال بدر الدين الذهبي :

عَرِّجْ على الرَّوضِ يا نديمى ... وَمِلْ إلى ظِلِّه الظَّلِيل
فالزَّهْرُ يَلْقاك بابْتِسام ... والرِيحُ تلقاك بِالقَبُولِ

(١٢) وقال شهاب الدين الحاجبي :

لا تبعثوا غَيرَ الصَّبا بِتَحِيَّةٍ ... ما طاب فِى سَمْعِى حَدِيثُ سِواها
حفِظَتْ أحاديثَ الهوى وتضوَّعت ... نشرا ، فيا للهِ ما أذكاها

(١٣) وقال شرف الدين بن منقذ :

ولَرُبَّ لَيْلٍ تاه فيه نَجْمُه ... وقَطَعْتُهُ سَهَرًا فَطال وعَسْعَسَا
وَسَأَلْتُه عن صُبحه فأجابنى ... لو كان فى قَيْدِ الحياةِ تَنَفَّسا

(١٤) وقال شمس الدين الأدفوى :

كم للنسيم على الرُّبَى من نِعمة ... وفضيلة بين الورَى لن تجْحدَا
ما زارها وشكت إليه فاقةً ... إلَّا وَهَزَّ لها الشمائلَ بالندى

(٢)

فيما يأتى نوعان من المحسّنات ، بَيِّنْ موضعَ كل منهما ، وسمِّه :

(١) قال مجير الدين بن تميم :

لِم لا أَميلُ إلى الرياض وحُسْنِها وأَعيشُ فيها تحت ظِلّ ضافى
والزهر يَلْقانى بِثَغْـــرٍ باسم والماء يلقانى بِقَلْبٍ صافى

(٣)

عيون . واجب . حاجب

استعمل الكلمات السالفة فى أساليبَ من إنشائك بحيث يكون فيها تورية .

٢ — المُطَـــابَقَة

(١) قد يجمع المتكلِّم فى كلامه بين لفظين يتنافى وجود معناهما معاً فى شىءٍ واحد فى وقتٍ واحدٍ ، كالحياة والموت ، والضَّحك والبكاء ، والعِلم والجهل ، والظامة والنور ، فيكون تقابل المعنيين وتخالفهما مما يَزيد الكلام حُسْناً وطَرافة .

فمن ذلك قوله تعالى : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ » وقوله تعالى: « هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ

وَالْبَاطِنُ . » وقوله تعالى : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ . »

ومما أُثِر من الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم :

« فَلْيأْخُذِ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ، وَمن الشَّبِيبَةِ لِلْكِبَرِ ، وَمِن الْحَيَاةِ لِلْمَمَاتِ ، (والذى نفسى بيده) مَا بَعْدَ الْحَيَاةِ مُسْتَعْتَبٌ ، وَلاَ بَعْدَ الدُّنْيَا دَارٌ إِلاَّ الْجَنَّةُ أَو النَّارُ » .

وقول بَشَّار بن بُرْد :

إذا أَيْقَظَتْكَ حُروب العِدا فَنَبِّه لها عُمَراً ثُمَّ نَمْ

ويُسمِّى علماء البديع هذا النوعَ من الكلام « طِبَاقَ إِيجَاب » .

(ب) وقد يكون تنافى المعنيين بذكر الفعل مُثْبَتاً مرة ، ومنفيًّا أخرى فى كلام واحد ، كما فى قوله تعالى : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ . »

وكما فى قول البحترى :

يُقَيِّضُ لى من حيث لا أعلم النَّوَى وَيَسْرِى إِلَىَّ الشوق من حيث أَعْلَمُ

ومثله : أن يكون الفعل مأموراً به مرة ، ومنهيا عنه أخرى ، كقوله تعالى : « فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ » ويسمِّى علماء البديع هذا النوع « طِبَاقَ سَلْب » .

الخلاصة : الطِّباق : هو الجَمْعُ بين مَعْنَيَيْنِ مُتَقَابِلَيْن فى كلام واحد ، وهو نوعان :

(١) طِبَاقُ إيجاب : وهو ما كان تَقَابُلُ المعنيين فيه بالتَّضَاد .

(٢) طِبَاق سَلْب : وَهو أن يجمع بين فعلين ، من مصدر واحد ، أحدهما مُثْبَت والآخر مَنفى ، أو أحدهما أَمْرٌ والآخر نَهْى .

تمرينـــات

(١)

بين الطباق ونوعه فى الأمثلة الآتية :

(١) قال تعالى : « وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا . »

(٢) قال تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ . »

(٣) قال تعالى : « وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ . وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلاَ الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِى الْقُبُورِ . »

(٤) وقال المتنبى :

لِمَنْ تَطْلُبُ الدنيا إذا لم تَرِدْ بها سرورَ مُحِبٍ أو إساءةَ مُجْرِم

(٥) وقال الشاعر :

وإنى وإن أوْعَدْتُه أو وَعَدْتُه لَمُخْلِفُ إيعادى ومُنْجِزُ مَوْعِدى

(٦) وقال آخر :

وأعْلَمُ أن المَجْدَ شىءٌ مُخَلَّد وأن الغنى والمال غيرُ مُخَلَّدِ

(٧) وقال زُهَيْر بنُ أبى سُلْمَى فى المدح :

تراه إذا ما جِئْتَه مُتَهَلِّلًا كأنك تُعْطيه الذى أنت سائِلُه

أخو ثِقَةٍ لا يُهْلِكُ الخمرُ مالَه ولكنه قد يُهلِكُ المالَ نائِلُه

(٨) وقال النُّمَيْرِىُّ يمدح الرشيد :

إن المكارمَ والمعروفَ أَوْدِيَةٌ أَحَلَّكَ اللهُ منها حيث تَجْتَمِعُ

إذا رَفعت امرأً فالله رافعُه ومَنْ وَضَعْتَ من الأقوام مُتَّضِعُ

(٢)

فى الأمثلة الآتية نوعان من المحسِّنات ، بين موضع كل منهما وسَمِّه :

(١) قال الصاحب بن عَبَّاد فى رثاء كَثِير بن أحمد :

يقولون قد أَوْدَى كَثِيرُ بنُ أحمدٍ وذلِك رُزْءٌ فِى الأنامِ جَلِيلُ

فقلت دعونِى والعلا نَبْكِهِ معاً فمِثل كَثِيرٍ فِى الأنامِ قَلِيلُ

(٢) وقال أبو حَفْص المطوعى :

أو ما ترى نَوْرَ الخِلَافِ[1] كأنه ... لما بدا لِلعين نُورُ وِفاقِ

(٣) ولابن الفارض :

أَرَجُ النسيم سَرَى مِن الزَّوْراء ... سَحَرًا فَأَحْيا مَيِّتَ الأحْياء

(٤) وقال ابن نباتة :

يا غائبين تَعَلَّلْنَا لِغَيْبَتِكُمْ ... بِطِيبِ لهو، ولا واللهِ لم يَطِب

ذكرتُ — والكأسُ فى كفى — ليالِيَكم ... فالكأسُ فى راحةٍ والقلب فى تعبِ

(٥) وقال شهاب الدين بن حجر :

خليلىَّ ولّى العمر مِنا ولم نَتبْ ... ونَنوِى فِعال الصالِحِين ولكِنا

فحتى متى نبنِى بيوتاً مَشِيدَةً ... وأعمارنا مِنا تُهَدُّ وما تُبْنَى

٣ — حُسْنُ التعليـــل

(١) من الأشياء ما له صفةٌ ثابتة ذاتُ عِلَّة معروفة أو غيرِ معروفة ، كزلزلة الأرض ، وسُقوط المطر من السُّحُب ، ومقاتلة الأعداء ، وبزوغ القمر وأُفوله ، ونحو ذلك . فيلتمس الأدباءُ لها عِلَلًا أُخَرَ فيها طَرَافة وحُسْنٌ ، يَزْداد بها المعنى الذى يريدون تقريرَه جَمالًا وشرفاً .

---

(١) النور : الزهر . والخلاف : نوع من شجر الصفصاف .

(١) فمن ذلك قولُ الصلاح الإرْبلى يعلل عدم نزول المطر بأرض مصر ، و بطء جَرَيان النيل فى أحد الأعوام :

ما قَصَّرَ الغيثُ عن مِصر وتُرْبتها طَبْعًا ولكن تَعدَّاكم مِن الخَجَلِ
ولا جرى النيلُ إلا وهو مُعْتَرِف بِسَبْقِكُم فلذا يَجرى على مَهَلِ

فأنت تراه قد عَلَّلَ قِلَّة نزول المطر بمصرَ بعلَّة طريفة : هى خجلُه من الممدوح ؛ لأنه لا يستطيع مجاراته فى الكرم . وعلل بطء النيل بعلة لطيفة: هى ثقتُه بسَبْق الممدوح ، وانقطاعُ أمله مِنْ أن يسبقَهُ إذا جاراه .

(٢) ومن ذلك قول ابن الرومى :

لِمَا تُؤْذِن الدنيا به من صُرُوفها يكونُ بكاءُ الطِّفلِ ساعةَ يُولَد

فقد علل بكاء الطفل بغير علته الحقيقية؛ إذ تَصَوَّرَ أن الطفل ما بكى إلا لما يُحِسُّ عقب ولادته من أن هذه الحياةَ مملوءةٌ بصنوف الآلام ، وأنه قد تعرّض لشدائدِها وصروفها ، فبكى إشفاقاً على نفسه ممَّا سيلاقيه .

(ب) ومن الأشياء ما يَخْلُق له الأديب صِفةً ممكنةً أو غيرَ ممكنةٍ ، ثم يَلْتمس لها علة طَريفة ، تَزِيدُ المعنى كذلك شَرَفاً ونُبْلا .

(١) فمن ذلك قول الشاعر :

عِداى لهم فَضْـــلٌ عَلَىَّ وَمِنَّةٌ فلا أَذهبَ الرحمنُ عنى الأعاديا
هُمُ بحثوا عن زَلَّتى فاجْتَنَبتُها وهم نافَسونى فاكْتَسَبْتُ المعاليا

فإن وجودَ الفضل والمنةِ للأعداء ، والاعترافَ لهم بهما ممكن ، ولكنَّ الشاعرَ لما خالف الناسَ فى ذلك ، التَمَسَ لهذا الاعتراف علتين طريفتَين فى بيته الثانى ، سَوَّغ بهما هذه المخالفة ، وقرَّبها من النفوس .

(٢) ومن ذلك قول الآخر :

لو لم تكن نِيَّةُ الجَوْزَاءِ خِدمَتَه لَما رأيتَ عليها عِقْد مُنْتَطِقِ

فقد ادَّعى الشاعر أن الجوزاء تريد خدمةَ الممدوح ، وهذه صفة غيرُ ممكنة ، ولكنه عللها بعلة طريفة ادَّعاها أيضاً ادِّعاءً أدبيًّا مقبولاً ؛ إذ تصوَّر أن النجوم التى تحيط بالجوْزاء إنما هى نطاق شدَّتْه حولها — على نحو ما يفعل الخدم — لتقوم بخدمة الممدوح .

فأنت ترى فيما سلف من الأمثلة أنَّ أولئك الشعراء قد جعلوا لتلك الأوصاف عللاً طريفة ، زادت المعنى جمالا وحسناً ، ويسمَّى هذا النوع « حُسْنَ التعليل » .

الخلاصة : حسن التعليل : أن يَدَّعِىَ الأديب لِوَصْفٍ عِلةً مُناسبة فيها حُسْنٌ وطرَافة ، فَيزْدادُ بها المعنَى المراد جمالاً وشرفاً .

تمرينـــات

(١)

بَيِّنْ معانيَ الأبيات الآتية ، وما ترى فيها من حُسْن التعليل :

(١) قال المتنبي :

لم يَحْكِ بنَائِلَكَ السحابُ وإنما ... حُمَّتْ به فَصَبِيبُها الرُّحَضَـــاء

(٢) وقال أيضاً :

ما به قَتْـــلُ أعاديه ولكن ... يَتَّقِي إخْلافَ ما ترجو الذئاب

(٣) وقال مسلم بن الوليد :

يا وَاشِياً حَسُنَتْ فينا إسَاءتُه ... نَجَّى حِذارُك إنساني من الغَرَقِ

(٤) وقال آخرُ :

جزى اللهُ الشدائدَ كلَّ خير ... عَرَفتُ بها عدوِّي من صديقِ

(٥) وقال عبد الملك بن إدريس ، يمدح المنصور أبا عامر :

أرى بدرَ السماء يَلُوح حيناً ... ويَبْدو ثم يَلْتَحِفُ السحابا
وذاك لأنه لمـــا تَبَدَّى ... وأبْصر وجهَك اسْتَحْيا وغابا

(٦) وقال أبو الحسن النوبختي :

لم يطْلُع البدرُ إلا من تَشَوُّقِهِ ... إليك حتى يُوافِي وجهَكَ النَّضِرا
ولا تَغيَّبَ إلا عند خَجْلَتِهِ ... لمَّا رآك فَوَلَّى عنك واسْتَتَرا

(٧) وقال آخر فى زهر الآذريون وهو ينضم ليلا و يتفتح نهاراً :

عيونِ تِبْرٍ كأنهـــا سَرَقَتْ سوادَ أَحْداقِها من الغَسَقِ
فإن دَجا لَيلُهـــا بِظُلْمتِهِ تَضُمُّها خِيفَـةً من السَّرَقِ

(٨) وقال البهاء زهير :

لا تنكروا خَفَقَانَ قَلْـــبي والحبيبُ لدىَّ حاضِرْ
ما القـــلبِ إلا داره دُقَّتْ له فيهـــا البشائرْ

(٩) وقال البُحْتُرِىُّ :

ولو لم تَكن ساخِطاً لم أَكُنْ أَذُمُّ الزمان وأشكو الخُطُوبا

(١٠) وقال محمد بن هانئ :

قد طَيَّب الأفواهَ طِيبُ ثنائه من أجل ذا تجدُ الثغورَ عِذابا

(٢)

اذكر السبب الصحيح لما يأتى، ثم اصطنع سبباً تجعله من حُسن التعليل:

(ا) تَفَتُّحُ الأزهارِ فى فصل الربيع .

(ب) انتشارُ الغيم فى يوم صائفٍ عند قدوم عظيم منتظر .

٤ — تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه

(١) تأكيد المدح بما يشبه الذَّمّ :

(١) قد ينفى القائل صفات الذم عن ممدوحه، ثم يَذكُر أداة استثناء، فيتوهم السامعُ أنه سيذكر بعدها صفةَ ذم ، ولكنه لا يذكُر إلا صفة مدحٍ أخرى يؤكِّد بها مدحَه ؛ كقول النابغة الذبيانى :

ولا عَيْبَ فيهم غيرَ أن سيوفَهم ... بِهِنَّ فُلُولٌ من قِراعِ الكتائب

يقول : إنهم قد خَلصُوا من العيوب إلا ما ينال سيوفَهم من تَثْلُمها فى مُنازلة الجيوش، ومقارعة الأبطال . وَتَفَلُّلُ السيوف فى هذه الحالة من المفاخر التى يُتَمَدَّحُ بها ، فقد أكَّد بذلك مدحَهم ، وجاء بدليل ظاهر عليه ، وهو ما فى سيوفهم من الفُلول ، وَنَفَى ما كان السامع يَتَرَقَّبُهُ بعد ذكر كلمة « غير » من أنه سيذكر صفةَ ذم .

ومن هذا النوع قوله تعالى « لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ، إلاَّ قِيلا سَلاَماً سَلاَماً » فإن كلمة السلام التى ذُكِرَت بعد « إلا » ليست من اللغو والتأثيم ؛ بل هى من ألفاظ التحية والرَّحمة .

(٢) وقد يُثْبِتُ القائلُ لشىءٍ صفةَ مدحٍ ، ثم يُعَقِّبُ بأداة استثناء تليها صفة مدحٍ أخرى ؛ كقول النابغة الجَعْدِى :

فَتًى كَمُلَتْ أَخْلاقهُ غَيرَ أَنه جَوَادٌ فما يُبْقِي من المال باقيا

فكلمة « غير » تُوهِم أنه سيذكر صفةَ ذمٍّ ، ولكنه جاء بصفة مدحٍ أُخرى ، فتأكَّدَ بذلك ما أراده من المدح . ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم : «أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بَيْدَ أَنِّى مِنْ قُرَيْش .» فكونه من قريش مما يدل على كمال فصاحته .

(ب) تأكيد الذم بما يشبه المدح .

(١) قد يَنْفِي القائل صفاتِ المدح ، ثم يَسْتثنِي صفة ذم ؛ كقوله :

خلا من الفضل غَيْرَ أَنِّى أراه فى الخُلْقِ لا يُجارى

(٢) وقد يُثْبت القائلُ صفةَ ذم ، ثم يَستثنى صفةَ ذمٍّ أخرى ؛ كقولك : فلان جاهل إلا أنه عَيِيٌّ اللسان . ومن هذا قول الشاعر :

لئيم الطباع سوى أنه جَبَانٌ يَهُون عليه الهوان

ويُسمِّى علماءُ البديع ما جاء من القول على هذا النحو : « تأكيدَ الذم بما يُشبه المدحَ . »

الخلاصة : (١) تأكيد المدح بما يشبه الذم ضربان :

(١) أن يُستثنى من صفة ذمٍّ مَنْفِيَّةٍ عن الشىء صفةُ مدح ، بتقدير دخولها فيها .

(٢) أن يُثْبَتَ لشىء صفةُ مدحٍ ، ثمَّ يُؤْتَى بأداة استثناء يَليها صفةُ مدح اخرى .

(ب) تأكيد الذَّمِّ بما يشبه المدحَ ضربان :

(١) أن يُسْتَثْنَى من صفة مدحٍ منفيةٍ عن الشيء، صفةُ ذمٍّ بتقدير دخولها فيها .

(٢) أن يُثْبَت لشيء صفةُ ذم، ويُؤْتَى بأداة استثناء تليها صفةُ ذمٍّ أخرى .

تمرينـــات

(١)

بين النوعَ البديعيَّ فيما يأتى :

(١) ولا عَيْبَ فينا غيرَ أن سَماحَنا ... أضَرَّ بِنَا والبأس من كلِّ جانب
فأفْنَى الرَّدَى أعمارنا غَيرَ ظالمٍ ... وأفنى النَّدَى أموالنا غَيرَ عائب

(٢) ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم ... تعابُ بنسيان الأحِبَّةِ والْوَطَنْ

(٣) قال الصَّفِيُّ الحِلِّيُّ :

لا عيبَ فيهم سوى أن النَّزيل بهم ... يَسْلو عن الأهل والأوطان والحَشَمِ

(٤) لا عيب فيه غَيرَ أن يمينه ... تَدَعُ العـــديم مُهَنَّأً بيساره

(٥) ولابن الرومى :

ليس به عيبٌ سوى أنه ... لا تَقَعُ العَين على شبهه

(٦) وقال ابن نباتة :

ليس فيه عيبٌ سوى أن إحسا ... نَ يَدَيْهِ يَسْتَعْبِدُ الاحْـرارا

(٧) ولا عَيبَ فى معروفكم غَيرَ أنه ... يُبَيِّنُ عَجْزَ الشاكرين عن الشكر

متى تحسن المحسنات البديعية

قال تعالى :

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى .
وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى »

اُتْلُ هذه الآيات ، وأَعِد تلاوَتَها ، وراقب التَّماثُل أو التَّخالف بين أَلفاظها وأقسامها — فستجد أَوْجُهاً من المحسنات لا اكلفك العناء بتسميتها ، أو حِفْظِ أَلقابها وأسمائها . وإِنَّما حَسبِي أن تُدْرِكها ، ويُحِسَّهَا ذَوْقُك ، وتَشْعُرَ أَنها جَعَلت الآياتِ خفيفةً فى التلاوة .

فهذه الأقسام القَصيرة ، وهذه المُماثَلة بين أَعطى واتَّقى . والحُسنى واليُسرى — تريحُ القارئ ، وتَلَذ أُذُن السَّامع .

وهذه المُقابلة بين النِّصْفِ الأَول والنِّصْفِ الثانى من الآيات ، تُساعِدُك على فَهْمها ، بل على حِفظها أيضاً . وكَرِّرِ التلاوةَ تر ما أَشرت إليه مُحَسًّا جليًّا .

فهذا النوعُ هو النوعُ المُسْتَحْسَن الجيِّد من المحسنات البديعية . يُشَوِّقُ القارئَ والسامع ، ويوقِظُ انتباهَهُ للقول ، ويُقَرِّبُ إليه المعنى .

فالميزانُ الذى تُقدَّرُ به جودة المحسناتِ البديعيةِ وقيمة حسنها : تشويقُ السامع للقول ، وتقريبُ المعنى منه .

وترى ذلك فى الأمثلة الآتية ، وإن كان مُخْتَلِف الدرجاتِ فيها :

(١) قوله صلى الله عليه وسلم :

« اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفا ، وَأَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفا . »

(٢) وقــوله : .

« الخَيْلُ مَعْقُودٌ بنواصِيها الخَيْرُ . »

(٣) وقــوله :

« رَحِمَ الله عَبداً قال خَيْرًا فَغَنِمَ ، أَوْ سَكَتَ فَسلِمَ . »

(٤) وقوله للأنصار :

« إِنَّكُمْ لَتَكْثُرونَ عِنْدَ الفَزَع ، وَتَقِلُّون عند الطَّمَع . »

(٥) وقول النابغة الجعدى :

فتًى تَمَّ فيــه ما يَسُرُّ صديقَه على أَنَّ فيه ما يَسوءُ الأعاديا

(٦) وقول أبى تمام :

ولم أَرَ كالمَعْروف تُدْعَى حقوقُهُ مغارِمَ فى الأقوام وهى مغانِمُ

(٧) وقول الشاعر :

فتًى كَمُلَت أَخْلاقُه غَيْرَ أَنَّه جوادٌ فما يُبْقِى على المَالِ باقيا

فإذا كَثُرتْ أنواعُ المحسناتِ حتى أَخْفَت المعنى ، أو لم تُحَرِّك من نَشاطِ السَّامع ، فقد زَالَ عنها حُسْنُها ، وصارت مما يَشِين القول ، ويَنْزِلُ به ، كما سترى بعد .

تراكم المحسنات البديعية

قال الحريريُّ فى بعض مقاماته :

زُيِّنَتْ زَينبٌ بقَدٍ يَقُدُّ وتلاهُ ويلاهُ نَهْدٌ يَهُدُّ
جُنْدُها جِيدُها وظَرْفٌ وطَرْفٌ ناعِسٌ تَاعِسٌ بِحَدٍّ يَحُدُّ
قَدْرُها قَدْ زَهَا وتَاهَتْ وبَاهَتْ واغْتَدَتْ واعتدت بخد يخد

وتراه فى هذا الشِّعر قد زَاوجَ بين كلِّ كلمتين متجاورتين ، فجعلهما متماثلتين ، والتزم ذلك فى الأبيات كلّها ، وهو نوع من التَّحْسين اللَّفظى ، يَكُدُّ القائل ، ولا يُفيد السَّامع معنى قَيِّماً سديداً .

وكذلك قوله :

سِمْ سِمَةً تُحْمَدُ آثارُها واشكُرْ لمن أعْطى ولو سِمسِمَه
والمَكْرُ مهما اسْطَعْتَ لا تأْته لِتَقْتَنِي السُّؤْدُدَ والمَكْرُمَهْ

قد زاوَجَ فيه بين أوّل كل بيت وآخره : فأوّل البيت الأول «سم سمة» وآخره «سمسمة» ، والبيت الثانى آخره «والمكرمه» ، وتجد صورة هذه الكلمة فى أوله مأخوذة من الكلمتين « والمكر مهما » وإنما تُسْتَحَبُّ هذه المحسنات إذا جاءت على ما بُيِّنَ لك فى الفَصْل السابق.

اختلاف الذوق فى تقدير ضروب البديع

قال المرحومُ عبد الله باشا فكرى المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ فى رسالة :

« سلامٌ يُعَبِّرُ عن الوِدادِ طيبُ عَبيرِه ، ويُخْبِرُ عن الإخْلاص لُطْفُ تَعْبيرِه . وَثَناءٌ على مَحاسِنِ تلك الشَّمائلِ ، أَرَقُّ من نَسَماتِ الشَّمائلِ . وتَحِيةٌ بَهِيَّةٌ تُباهى الحمائل بنَفَحاتِ أوْرادِها ، وأدْعِيَةٌ مرضيَّة جعلتها الألْسن خير أوْرادها . لا زِلْتم محلَّ نِعْمة يتَّصِل على مدى الايام بقاؤُها ، ويزيدُ على مرِّ الشُّهور والأَعْوام بَهاؤُها . »

وقال الشّيخ صلاح الدين خليل بن أَيبك الصَّفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ فى وصف بستان :

« والماء قد رقَّ وراق ، وتَسَلْسَلَ وهو فى الإطْلاق ، وجَرَى فَتكَسَّر ، وصفا وَلَمْ يتغَيَّر ، وصاحَبَ النَّسماتِ وحالَفَها ، وقاطَعَ الأغصان وخالَفها ، وأتته الرِّياح للزِّيارة من شِعابها وهِضابها ، وسَرَقَ حُلِيَّ الأغصان فَضَمَّها إلى صَدْره وجَرى لها ، والعُيون تَرمُقهُ فى جَرْيه ومَسيره ، وهو لا يَفْتُرُ عن تَصفِيقهِ وخَريره ، حتى خَشِينا عليه التَّكَسُّرَ من التَّمادى ، ورَجَوْنا من ماء عَيْنَيْه رِىَّ كلِّ صادِى . »

ترى الأديبين قد التزما أنواعاً من المُحسنات البديعية ، وبخاصة السَّجْعُ ، وكان ذلك يُستحسن فى زَمَنَيْهما . فَيُسْتَجاد الكلام لهذا الجَمال اللَّفظى ، ويحفظ ويُروى .

وإذا قرأت لكبار الكُتاب الآنَ رأيتهم لا يَحْفِلون لِمُحَسِّنٍ بديعيٍّ ، ولا يلتزمون نوعاً من المحسنات ، بل لعلهم يَسْتَنْكرونه ، ويفِرُّونَ منه ، فَترى للزَّمن والبيئَة أثرَهُما فى أذْواق الكُتاب ، وفيما يَسْتَحِبُّون من أنواع هذا الجمال .

وقال ابن نباتة الشاعر يمدح :

جَذْلانُ تَحْذِفُ جَمْعَ المَالِ راحَتُه حَذْفَ الإضافَةِ فى الأَسماءِ تَنْوينا

وقال أيضاً :

على ذِكرِكَ العالى بنى كلّ معرب ثَناه فيا لله من مُعْرَبٍ مَبْنى

فاستَعْمَل فى شِعْره بعضَ اصطلاحاتِ عِلْمِ النَّحو ، وكان استخدام الاصطلاحات العلمية مَحبوباً ، معدوداً مما يزيدُ القولَ حُسناً ، ويُكْسِبه جمالاً ، وتراه الآن مكروهاً لا يُسْتَمْلَحُ ولا يُقْبَل .

فضروب البديع يَخْتَلِف حسنُها وقُبْحُها باخْتِلاف الأَزْمِنَة والبيئاتِ ، وفى تاريخ الأَدب تَفْصِيلُ هذا وبيانُ أَزْمانِه .

السّرقات الشِّعْرية

إذا قرأْتَ من الشِّعر كثيراً وجدتَ أن بعض المعانى تتكرَّر فيه وتَتَرَدَّد ، ويتناوَلُها شاعِرٌ وآخر . والنُّقَّاد يُعْنَوْنَ بهذه المعانى ليقايسوا بينها ، ويَعْرفوا أوَّل شاعر سبق إليها ، ومَسلَك كلِّ شاعر فى تناوُل المعنى ، وفى صَوْغ عبارته

ومن ذلك قول بشار :

كأنَّ مُثارَ النَّقع فوق رُءوسنا وأسيافَنا — ليلٌ تَهاوى كَواكِبُه

وقول عبد الله بن المعتز :

وعمَّ السماءَ النَّقْعُ حتى كأنَّه دُخانٌ وأطْرافُ الرِّماحِ شَرار

فقد كانت الحربُ إذا اشتدَّت ، وأسرع الفرسان بجيادهم يتصايحون ، ثار التراب وعلا ، حتى يُظْلِمَ الجَوُّ . وكان ذلك آية اشْتِدادِ المَعْرَكة ، وبُلُوغِها الغايةَ من العُنْف والقُوَّة .

وبَشَّارٌ شبَّه هذه الحالة باللَّيل ، والسُّيوفَ بالكواكب تَتَهاوى . وابنُ المعتزِ شبهها بالدُّخان ، وأطرافَ الرِّماح بالشَّرر .

فنقايس بين التَّشبيهين لِنتبيَّنَ صُنْعَ الشاعرين فيهما . أما بشارٌ فإنَّه جَعَلَ مُثار النَّقع ليلاً ، فكان ذلك أشدّ فى الدّلالة على كَثْرَةِ الغُبار وعُلُوِّه وتراكمه ، وجَعَلَ الأسياف كَواكبَ تتهاوى ، فدلَّ على ما فيها من حركة سريعةٍ عنيفة . فمعركةُ بَشَّار — التى لم نَشْهَدْها — يُصَوِّرُ لك هذا البيتُ هَوْلَها وشدَّتها بأوْضحَ مما يُصَوِّره الرسَّامُ بريشَتِه .

أما ابن المعتز ، فجعل النَّقع دُخاناً ، فهو أدَقُّ وَأرَقُّ من نَقْع بَشّار ، وجَعَل أطرافَ الرِّماح شَرَراً ، وهو أقلُّ لها وأقربُ لِمَدَى حَرَكَتها . فبلَغَ بشَّار من تَفْخيم المَعْرَكة وتهويل شَانها ، ما لَمْ يَبْلغ ابن المعتز .

على أنَّ تَشْبيه ابن المعتز أقربُ إلى العُرْفِ والإلْف ؛ فطالما رأى الرَّاءون دُخاناً يَنْقدِح فيه الشَّرر . وبين أجزاء تشبيهه انْسِجام وتوافق ؛ فالدُّخان يُذْكِرُ عادةً بالشَّرر . فقد ترى لكل تشبيهٍ ميزَتَه .

ولك بَعْدُ ؛ أَنْ تُفَضِّلَ أحد التشبيهين بما يُمليه ذَوقُك ، ويَشْهدُ به حِسُّك ، على أن رَأْيَ النُّقَّاد قد مضى بتَفْضِيل بيتِ بَشّار . وقد اتبعه شُعراء آخرون فى المُبالغة وتكثير النقْع .

وقال بعضهم :

عَقَدَتْ سَنَابِكُها عليها عِثْيَراً لو تَبْتَغِى عَنَقاً عليه لَأَمْكَنَا

فحوافِرُ الخَيلِ قد أثارت الغُبار ، حتَّى كَثُرَ وتجمَّع ، فَغَلُظ وتَجَمَّد ، فلو شَاءت الخيل أن تَعْدُوَ فوقَه لفَعلت .

وها أنت ذا رأيْتَ كيف يُفاضِلُ النّقادُ بين شاعِرَيْنِ تَناولا معنًى واحدًا ، ومعانِيَ مُتقارِبَةً ، ورأيت أنَّ هـذا دَرْسٌ حسن فى الشِّعر ، وفى تمحيص المعانى ، ووسيلةٌ لتنبيه الذَّوق وتمرينه على المُوازنة والحكم .

ونسوقُ إليك مثلاً آخر نُقَدِّمُهُ ببيان موجَزٍ عن أصل المعنى فيه ؛ وذَلك أنَّ الرَّامى يَضَع السَّهم فى مكانه من وَسَطِ الوَتَرِ ، ثم يَشُدُّ السَّهم بالوتر إليه ، فتنحنى القوس ، فإذا أرسل الوتَرَ من يده انفتحَتِ القوسُ بقوةٍ ، وعاد الوتر سريعاً فقذَفَ بالسهم إلى حَيْثُ صَوَّب الرامى ، وكلَّما أراد

أن يُبْعِدَ فى النَّزْعِ « أىْ رَمْىِ السهم » شَدَّدَ فى جَذْبِ الوترِ إليه . فكانت شِدَّةُ تقريب السهم من الرامى السببَ فى قُوَّةِ نَزْعِهِ ، والإبعادِ فى رَمْيِهِ .

ولَّد الشِّعْرُ من هذه الصورة المعانِىَ ، فقال ابن الرومى :

كأنىَ أسْتَدْنِى بِكَ ابْنَ حَنِيَّةٍ إذا النزعُ أدناه من الصَّدْرِ أبْعَدَا

— فى العيب على صديقٍ له ، كان كلَّما زاد فى تقريبه ازداد نفورًا ومباعَدَة ، فقال : كأنك السَّهم كلّما أَدْنَيته من صَدْرِى كان ذلك أدعَى لِمُضِيِّهِ فى البُعْدِ .

وقال ابنُ القَيِّمِ الحَمَوِىُّ أحَدُ شعراء الشام :

فَهْوَ كالسَّهمِ كلَّما زِدتَهُ منـــكَ دُنُوًّا بالنَّزع زَادكَ بُعدا

وصف رجلًا أنه كلما قربتَهُ زادكَ نفورًا ومجانبة ، ومثله فى ذلك بالسَّهم أيضاً .

وقال غيرها :

وتَخِذْتَنى كالسهم تُدْ نِيهِ لِتُقْصِـــيَهُ مَليًّا

جَعَلَ السَّهْمَ مَثَلًا لنفسه أدناه إليه مَنِ اصطفاه لِيُقْصِيَه .

ويحسن بك أن تعود إلى هذه الأبيات تقرؤُها وتتروّاها ، لترى أيُّها أسْهل صَوْغًا ، وأوْضَحُ تَعْبيرًا ، وأيها أدَقُّ فى استعمال التَّشبيه ،

وفى وَضْعِهِ فى أَلْيَقِ مكانٍ به ، ثم تُفَضِّلُ ما شِئْت منها كما يُحِسُّ ذَوْقك ، ويُمْلى عليك رَأْيُك ويكون لابن الرومىِّ فى كل حال فَضْلُ السَّبق ، ومَزِيَّةُ الأوَّلية .

واعلم أنَّ أَخذ شاعر للمعنى من شاعر آخر ، يُسَمّى عند علماء البيان « السَّرِقَةَ الشعرية . »

على أنهم لا يُسَمُّونَ هذا الأخذ سرقة إلَّا فى المعنى الدَّقيق ، الذى يَدُلُّ على جَهْدٍ واسْتنباط ، حتى يحسن أن يُخَصَّ به قائله . أما المعانى القريبةُ الواضحةُ فلا يكون شاعر أَولى بها من شاعر ، ولا يَدخل تَدَاولُها فى باب السرقاتِ الشعرية ؛ وذلك كتشبيه الجَوادِ بالبَحْر ، والجُودِ بالمَطر ، والطَّلْعَةِ الجميلةِ بالقمر ، وكقولهم :

الموتُ غايةُ كلِّ حىّ ، والدَّأْبُ سبيل النُّجْح .

إلى غير هذا من المعانى التى تَقْرُب من أوساط الناس ، وتتردَّدُ على أَلْسِنَتهم .

وتَسْمِيَةُ علماء البيان أَخْذ المعانى على هذا الوجهِ « سَرِقَةً شِعْرِيَّةً » تُوهِمُ أنهم يَعُدُّونها كالسرقةِ تُذَمُّ كلُّها ، وتُعابُ فى جميع مواضِعِها وأحوالها ، على أنهم يَقْسِمُونها قِسْمَيْن .

(١) القسم الأول : « سَرِقَةٌ مُسْتَحْسَنة » — وهى ما كان للآخِذِ فيها أَثَرٌ جديد فى تَحسينِ العبارة ؛ لتسهيلها ، أو إيجازها ،

أو إحكامها ، أو غير هذا مما تَفْضُلُ به عبارتُهُ عبارةً سابقة ، وفى تكملةِ المعنى والتصرُّفِ فيه تصرُّفاً يُجَدِّدُ منه .

(٢) القسم الثانى : « السَّرِقَةُ المُنْكَرَةُ » — وهى التى لا يَزِيدُ الثانى على الأوَّلِ فى تحسين اللّفظ ، ولا فى إحكام المعنى .

وتستطيع أن ترى فى الأمثلة الآتيــة شيئاً من التصرُّف يختلف مقداره . وكُلَّما كان تصرفُ الثانى أكثرَ ، وأَثَرُهُ فى اللفظ أو المعنى أظْهر ، كان أَخذه أو « سَرِقَتُهُ » أَدْخَلَ فى بابِ القبولِ والاستحسانِ .

١ — قال أحدُ الشعراء المتقدِّمين :

لقد زَادَنِى حُبًّا لنفسِىَ أَنَّنى بغيضٌ إلى كلِّ امرئٍ غَيْرِ طائل

وقال المتنبى :

وإذا أَتَتْكَ مَذَمَّتِى من ناقِصٍ فهىَ الشَّهادَةُ لِى بأَنِّىَ كامــلُ

عبَّر الأَوّل عن حال تخُصُّه ، وحِسٍّ تدركُهُ نفسه . أما الثانى فأرسل الكلام إرسال القاعدةِ المُطَّردة ، والمثلِ السائر . فشُهِرَ بَيْتُه ، وجرت به أَلْسنَة المتكلمين من بَعْده . على أنه ليس لنا أن نَنْسى الموازَنةَ بين كلمتى « غَيْرِ طائل » فى البيت الأول ، و « ناقِصٍ » فى البيت الثانى ؛ ففى الأولى من أدب العبارة ما ليس فى الثانية ، قال : « كلّ امرئ غير طائل » ولم يقل : كل ضعيفٍ ، أو وضيع ،

أو غير ذى قِيمَةٍ ؛ من تلك العبارات المكشوفة المؤلمة . والمتنبي جانس بين « ناقص » و « كاملٍ » ، ولكنَّهُ سَبَّ خَصْمَهُ بكلمة ناقص سَبًّا واضحًا قريبًا مُؤلمًا .

٢ — وقال كثير :

أُريدُ لأَنْسَى ذِكْرَها فكأَنَّما تَمَثَّلُ لِى لَيْلَىٰ بكلِّ سبيلِ

وقال أبو نُوَاس :

مَلِكٌ تصوَّر فى القُلوب مثالُهُ فكأَنَّه لم يَخلُ منه مكانُ

فالثانى أخذ من الأول ، ولكنه نقل المعنى من الغَزَلِ إلى المَديح ، فأُخفى سَرِقَتَه ، على أن المعنى بالنسيب أَولى وأَلْيَق .

٣ — قال أحد الشعراء المتقدمين :

أَجِدُ المَلامَةَ فى هواكِ لذيذَةً حُبًّا لِذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ

وقال المتنبي :

أُأُحِبُّه واحِبُّ فيه ملامةً إنَّ المَلامَةَ فيهِ من أعدائِهِ

فأُخذ من الأَول ، ولكنه تصرَّف تصرُّفًا أَخْفَى السرقَةَ ، وباعَدَ بين المعنيين ؛ إذ أتى بنقيض المعنى الأول ، فكأنما ابتدع معنى جديداً . على أنه يظهر فى الأولِ أنَّه أصدقُ ترجمة عما فى نفسه ، وتعبيرًا عن حِسِّه ، وتلك من مزِيَّة الشعر ، وأسباب جماله .

فالخلاصة : أنَّ السَّرِقَةَ الشِّعريةَ هى أَخْذ شاعرٍ من آخَرَ مَعْنًى من المعانى ، وأنها تَنقَسِمُ قسمين « سَرِقَةً مُنْكَرَةً » وهى التى لم يتصرَّفِ

الشاعرُ الثانى فيها تَصرُّفاً يكمل به المعنى ، أو يحسن التعبير. و « سرقة مقبولة » وهى ما تَصرَّف الشاعر فيها تصرُّفاً حسناً فى اللَّفْظ أو فى المعنى ، ويختلف نوع هذا التصرف ومسلَكُ الشاعر فيه .

وموازنةُ هذه المعانى، وتقديرُ مَسْلَكِ كلِّ شاعرٍ فى المعنى واللفظ، دَرْسٌ حَسَنٌ من نَقْد الشعر سلكه المتقدمون ، ووسيلةٌ نافعةٌ لتمرين الذَّوْقِ الأدبىِّ ، جديرٌ بالمتعلم أن يستفيدَ منها وَيُنَمِّىَ مَلَكَتهُ بها .

قال القاضى علىُّ بنُ عبدِ العزيزِ الجُرْجَانِىُّ « فى السرقاتِ الشِّعْرِيةِ »:

« والسَّرِقَةُ « أيدكَ الله » داءٌ قديمٌ ، وعيبٌ عتيقٌ ؛ وما زال الشاعرُ يستعينُ بخاطر الآخر ، ويستَمِدُّ من قريحته ، وَيَعْتَمِدُ على معناه ولفظه ، وكان أكثرُهُ ظاهراً ... ثم تَسبَّبَ المحْدَثونَ إلى إخفائه بالنَّقْلِ والقَلْب ، وتَغْيِيرِ المناهجِ والترتيب ، وتكلَّفوا جَبْرَ ما فيهِ من النَّقِيصَةِ بالزِّيادة والتأكيدِ ، والتعريض فى حالٍ ، والتصريحِ فى أخرى ، والاحتجاجِ والتعليلِ ، فصار أحدُهم إذا أخذ معنًى أضَافَ إليه من هذه الأمورِ ما لا يُقَصِّرُ معه عن اختِرَاعه وإبداعِ مثله .

ومتى أنصفْت عَلِمْت أنَّ أهل عصرِنا ، ثم العصر الذى بعدنا ، أقرب فيه إلى المعْذِرَة ، وأبعَدُ من المَذَمَّة ؛ لأن مَنْ تقدَّمَنا قد استَغْرَقَ المعانى ، وسَبقَ إليها ، وأتى على مُعْظَمِها . وإنَّما نَحْصُلُ على بقايا : إمَّا أنْ تكونَ تُرِكَتْ رغبةً عنها ، أو استهانةً بها ، أو لِبُعْدِ مطلبها ، واعتياصِ مرامها ، وتعذُّرِ الوصول إليها ؛ ومتى أجْهَدَ أحدُنا نفسه ، وأعمَلَ فكره ، وأتعبَ

خاطرَه وذهنه فى تحصيل معنى يظنُّهُ غريباً مُبْتَدَعاً ، ونظم بيتاً يحسِبُهُ فَرْداً مخترعاً ، ثم تصفَّحَ عنه الدّواوين لم يُخْطِ أن يجدَهُ بعينه ، أو يجدَ له مثالا يَنْضُ من حُسْنِهِ . »

والقاضى الجُرْجَانىُّ من أئمةِ القَرْن الرابع الهِجْرى، كان فقيهاً عالماً ، وقاضياً تقيًّا عَدْلاً ، وأديباً نقّاداً بصيراً ، وكان مع هذا كلِّه على خُلُقٍ عظيم . ومن عَرَف تاريخَه ، أو قرأ شِعْره ، أو نظر فى تآليفه ، امتلا قلبُه لِلإمَامِ إجلالاً ومَحَبَّةً خالصة . وهذا التقدير والإجلال من نفوسنا لاَ يَمْنعُنَا أن نُجيل النظر فى نَقْد رَأيه ، وأن نسائلك رأيك فى دَعْواه . (أنَّ من تَقَدَّمَنا قد استغرق المعانى ، وسَبَق إليها .) أترضى فى ذلك حكمه ، وتُقَرِّر معه رأيَه ؟

لقد أحسن القاضىَ الاعتذارَ عن الشعراء فى سَرِقاتهم ، ولكن هذا السبب الذى يُقَرِّرُه ليبنىَ عليه حُكْمَهُ ، جديرٌ أن يبحث .

إنَّ الشُّعراءَ المتقدمين قد رَسَمُوا لأنْفُسِهم طريقةً التزموها، ثم ضَيَّقُوها وضَيَّقوا على أنفسهم فيها . كُلُّ قصيدة تُبْدَأُ بالغَزَل ، من أَحبَّ ومن لم يُحِب ، ومن رقَّت عاطِفَتُه ، ومَن قَسَا قَلبُه . كل أولئك عليهم أن يتغَزَّلُوا ، ويتكلفوا الصَّبابَةَ والحب ، ويبدءوا بالنَّسِيب قصائدهمْ ، ثم هم فى هـذا الغزل مُقَيَّدون أبدا بأنواعٍ من المعانى محدودة ، وبطُرُقٍ للقول مَرْسُومة .

وأبوابُ الشعرِ عندهم محدودةٌ أيْضًا؛ من فخر ومدح و.. الخ لا نُطِيل عليك بيانها؛ إذ قد تكفَّل تاريخُ الأدب بشرحها، وإنما نقرر أن تَضْيِيق الشعراء على أنْفُسهم قلَّلَ المعانيَ أمَامهم، وضَيَّق مَجَال التَّفكير، فكان ذلك سبباً لما قرره القاضى؛ من أنَّ المتقدمين قد اسْتَغْرَقوا المعانى. ولو أن الشُّعراء حَرَّرُوا أنْفُسهم من هذه القيود، وَوَسَّعُوا عليها من هذا الضِّيق، لوجدوا مكان القولِ ذا سَعَةٍ، وأدْرَكُوا من المعانى ما لاَ يَتَنَاهى، وما لا يَحُدُّه حَدٌّ.

فالشعرُ يَصِفُ عَواطِفَ الناسِ ومشاعِرَهم، وحركاتِ قلوبِهِمْ حين يُحبون أو يُبْغِضُون، وحين يحاربون أوْ يُسالِمون، وحين يَشْكُرون أو يَحْقِدُون. فهل أحاط الشعراء بكل هذا؟.

والشِّعر يصف الجمال، ويُتَرْجم ويَكْشِف عن أسْراره، ويفتح له عُيُونَ الناس وقلوبَهم. فهل أدَّى الشعراء حقَّ الشعر، وحقَّ الناسِ من هذه المعانى؟

والشعر يتناول حوادث الدنيا: خيرَها وشرَّها، ونَعِيمَها وبُؤسها، يُسَجِّلها، أو يُصَوِّرها ويُلَوِّنها، ويُعَلِّم الناسَ العِبْرة منها. فهل تناول الشعراء من هذا ما ينبغى أن يُتَناول؟

فى كل هذا مَجَالٌ للشعر ولخواطِرِ الشعراء، واسعٌ كلَّ السَّعَة. فإذا تأملنا ذلك كلَّه، علِمنا أن الشعراء لم يُحِيطوا بشىء، وأنَّ ما قالوه من المعانى لا يُعَدُّ فيما بقى منها إلا قليلاً ضَئِيلاً.

وما دام العقلُ يفكر فيكشف من العلوم ، ويبتدع من المخترعات ، فأولى به ألَّا يَعْجِز عن إنشاء المعانى وصُوَرها ، وعن التَّصَرُّف فيها . والشَّاعرُ يَكْشِف من المعانى ، ويَبْتَدِع فى تصويرها كما يَبْتَدِع الكاشفون فى العلم ، والمخترعون فى الآلات . وما بقى البيان هنا إلا إشارة وإيماء ، ولكنى أضرب لك مثلاً واحداً ؛ فالعرب — كما أسلفنا فى ثنايا هذا الكتاب — كانوا يَرْحَلون ويسافرون ليتَّجِروا ، فملئوا الشعر من معانى السَّفَر والِارْتحال ، والغُرْبةِ والِالْتِقاء ، وكان صاحبهم الجَمَل ، فَمَلَئُوا لغتَهم من أنواع التشبيه به ، ومن وَصْف حركاته ، بل وحركات نفسه أيضاً ، كما قال الشاعر :

فَمَنْ يَكُ لم يَغْرَضْ فإنِّى وناقتى ... بِشَوْق إلى أهْلِ الحِمَى غَرِضَانِ
هَوَى ناقتى خَلْفى وقُدَّامىَ الهَوَى ... وإنِّى وإياهـا لَمُخْتَلِفانِ
تَحِنُّ فَتُبْدِى ما بها من صَبَابَةٍ ... وأُخفِى الذى لولا الأَسَى لَقَضَانِى

أما اليوم ؛ فقد كثرت أسفار الناس ورحلاتهم ، وبعدت مسافات السفر بقدر ما سهل النقل ، وتَدانَتْ أقطار الأرض بما اخْتُرِع من مُهَوِّنات السفر ، وليْسَ لشُعراء العرَبيَّة المُحْدَثين مِن ذلك إلا مَدًى قَصيرٌ ؛ فالقاضى الجُرْجانِىُّ حِين قَرَّرَ أَنَّ المُتَقَدِّمينَ قد اسْتَغْرَقوا المعانِىَ ، وسَبقُوا إليْها — كان مُتَأَثِّرًا فى ذلك بما يَرَى من حال الشِّعْرِ والشُّعَراء ، وأنهُمْ قد ضَيَّقُوا على أَنْفُسِهِم ، وحَدَّدوا طُرقهم . أما الآنَ ؛

فإننا نُقرِّرُ أنَّه ليسَ مَيْدانٌ أَوْسَعَ مِن مَيْدانِ الشِّعْرِ أمامَ الشُّعَرَاء، ولا معانٍ أكثرَ من المعانى التى يُمْكِن أن تَتَهَيَّأَ لهم .

تمرين

اجْمَع المعانىَ المُتَماثِلَةَ فيما يأتى ، وَوَازِنْ بينها ، وفَضِّلْ ما تراه ، واذْكُر السببَ غيرَ مُعْتَمِدٍ إلا على ذَوْقك ، وما يناله حِسُّك .

(١) قال جرير :

بَعَثْنَ الهَوَى ثم ارتمين قلوبَنا ... بأسْهُمِ أعداءٍ وهُنَّ صَدِيق

قال أبو نُوَاس :

إذا امْتَحَنَ الدُّنْيا لَبيبٌ تكشَّفَت ... له عَنْ عَدُوٍّ فى ثِيابِ صَدِيقِ

(٢) قال العَبّاسُ بْنُ الأَحْنَف :

بَكَتْ غَيْرَ آنِسَةٍ بالبُكا ... ترى الدمْعَ فى مُقلتيها غريبا

وقال أبو الطَّيِّب :

أتَتْهُنَّ المَصَائِبُ غَافِلاتٍ ... فَدَمْعُ الحُزْنِ فى دَمْعِ الدَّلالِ

(٣) قال بَشَّار :

خُلِقْتُ عَلَى ما فِيَّ غَيْرَ مُخَيَّرٍ ... هَوَاى وَلَوْ خُيِّرْتُ كُنْتُ المُهَذَّبَا

وقال أبو تمَّام :

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لم تَزِدْها ... على ما فيكَ مِنْ كَرَمِ الخِصَالِ

تم بحمد الله تعالى

فهـــرس

الموضـــوع	الصفحة
التعبير عن المعنى الواحد بأساليب كثيرة	٣
تمرينـــات	١٠
التشـــبيه	١٣
الفرق بين الكاف وكأن	١٥
تمرينـــات	١٥
أغراض التشـبيه	١٩
بلاغـة التشـبيه	٢١
تمرينـات	٢٤
التشـبيه باعتبار الأداة	٢٧
التشبيـه باعتبـار الوجه	٢٨
التشبيـه البليـغ	٢٨
تمرينـات	٢٩
تشبيه التمثيل	٣٣
تمرينـات	٣٤
إختلاف الذوق فى تقدير التشبيه باختلاف البيئة والعصور	٣٩
التعبير بالاستعارة	٤٢
الاستعارة فى المركب	٤٤
أمثلة للاستعارة فى المركب	٤٥
السر فى جمال الاستعارة	٤٦

الموضـــوع	الصفحة
موقع الاستعارة : متى تحسن ؟ ومتى لا تحسن ؟	٤٨
أمثلة للاستعارة من جيد النثر والشعر	٥٢
اختلاف الأذواق فى تقدير الاستعارة باختلاف العصور والبيئة ...	٥٥
الكنـاية	٥٨
أسباب استعمال الكناية	٥٩
السر فى بلاغة الكناية	٦٠
ضروب الكناية	٦١
أمثلة للكناية من جيد النثر والشعر	٦٣
الفرق بين التشبيه والاستعارة والكناية	٦٦
تمرينـات	٦٧
اختلاف الذوق فى تقدير الكناية	٧٢
توليد الصور	٧٤
تجدد صور البيان	٧٧
تراكم صور البيان	٨١
البـديع	٨٤
مقـدمة	٨٤
المحسنات البديعية نوعان	٨٦
المحسنات اللفظية	٨٦
الجناس	٨٦
تمرينات	٨٩
المحسنات المعنوية	٩٣
التورية	٩٣

الموضوع	الصفحة
تمرينات	٩٥
المطابقة	٩٨
تمرينات	١٠٠
حسن التعليل	١٠٢
تمرينات	١٠٥
تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه	١٠٧
تأكيد المدح بما يشبه الذم	١٠٧
تأكيد الذم بما يشبه المدح	١٠٨
تمرينات	١٠٩
متى تحسن المحسنات البديعية	١١٠
تراكم المحسنات البديعية	١١٢
اختلاف الذوق فى تقدير ضروب البديع	١١٣
السرقات الشعرية	١١٤
تمرين	١٢٥

تم طبع هذا الكتاب فى ١٢ من شعبان سنة ١٣٧١
(الموافق ٦ مايو سنة ١٩٥٢)

مدير المطبعة الأميرية
حسن على كليوه

المطبعة الاميرية ١٢٥٧٠-١٩٥١-١٨٠٠٠